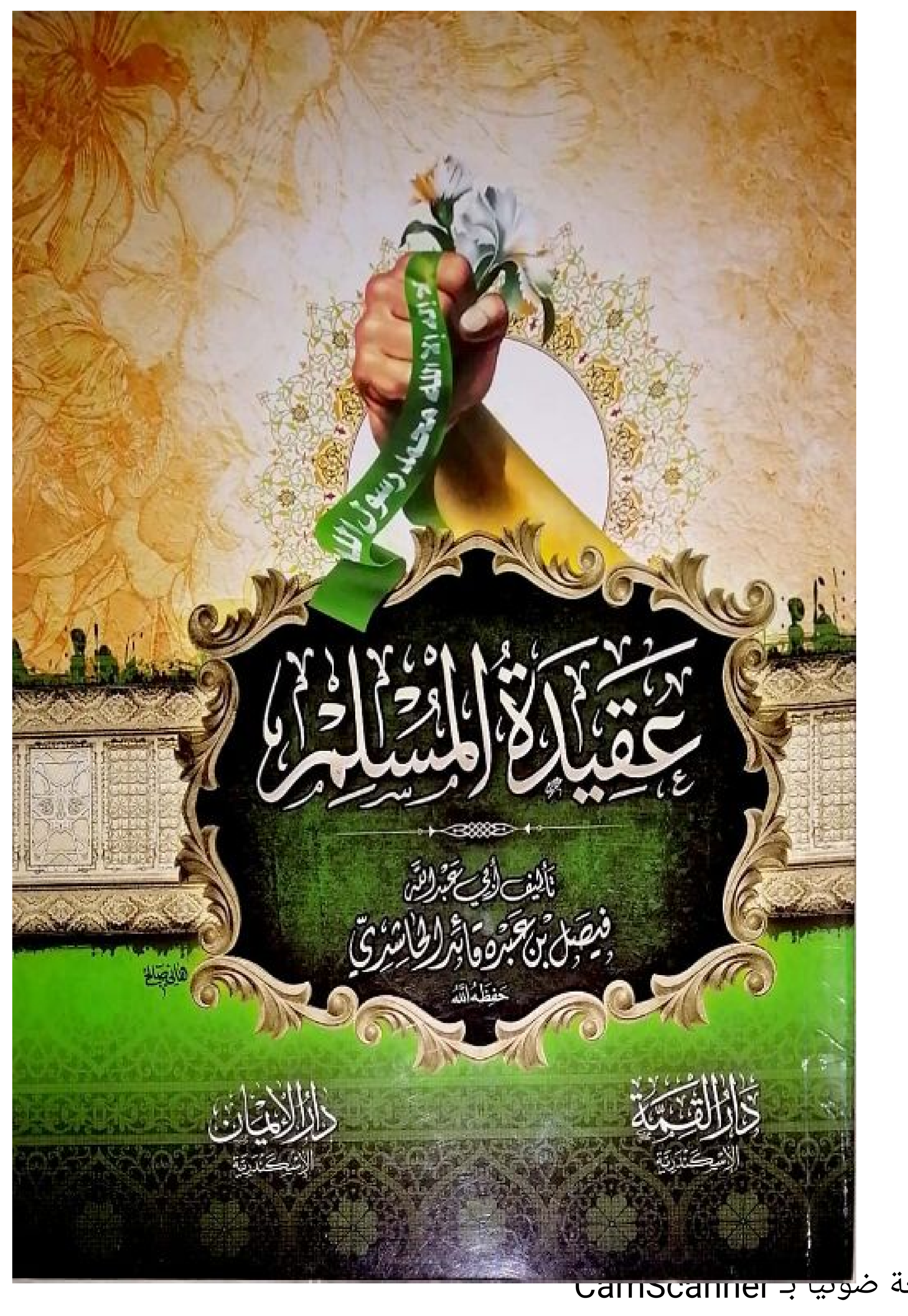

محمد رسول الله
عقيدة المسلم
تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي
حفظه الله
دار القمة
الإسكندرية
دار الإيمان
الإسكندرية



تأليف أبي عبد الله
فيصل بن عبده قائد الحاشدي
عفا الله عنه





بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: عقيدة المسلم

تأليف فضيلة الشيخ: فيصل الحاشدي

رقم الإيداع: ٩٨٨٢ /٢٠٢١.

نوع الطباعة: لون واحد.

عدد الصفحات: ١٣٦.

القياس: ٢٤X١٧.

تجهيزات فنية:

مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية

أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ عادل المسلماني.

٢٠٢١



الإدارة

دار الإيمان

١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٨ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات

دار القمة

١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٨ - ٥٣٢٢٠٠٢

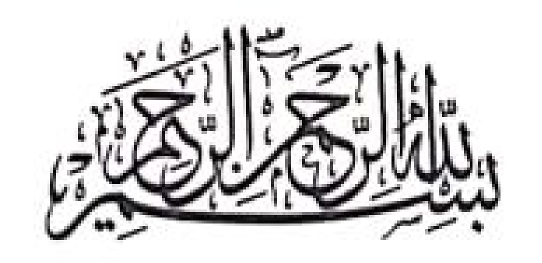
E-mail dar_aleman@hotmail.com

فرعنا في الجمهورية اليمنية

دار الإيمان المتحدة

أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار

جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على أشْرَفِ المُرْسَلِينَ، وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ أجْمَعِينَ.

أمَّا بَعْدُ: فإنَّ شَرَفَ العِلْمِ بِشَرَفِ المَعْلُومِ، وإنَّ عِلْمَ العَقِيدةِ أشْرَفُ العُلُومِ، وأعظَمُها وأجَلُّها؛ إذْ مَوْضُوعُهُ العِلْمُ باللهِ، وما ينبغي لَهُ مِنَ الجَلَالِ والتعظيمِ، والحُبِّ والرَّجَاءِ.

كما أنَّهُ مِنْ أعْظَمِ طُرُقِ رَدِّ الشَّيْطَانِ بَعْدَ الاستعانةِ باللهِ، والاستغاثةِ بِهِ، قال عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: «كان أوَّلُ أمْرِي في العبادةِ، فقطع عليَّ الشَّيطانُ بذِكْرِ عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، كيف خَلَقَهُ اللهُ، قال: فذكرتُ ذلك للشَّيخِ، فقال لي: ابْنَ وَهْبٍ، اطْلُبِ العِلْمَ، قال: فَطَلَبْتُهُ فَزَالَ عنِّي»[1].

ولا شَيْءَ أحبُّ إلىٰ اللهِ مِنَ التَّوحيدِ، قال شيخُ الإسلامِ: «ولا شَيْءَ أحَبُّ إلىٰ اللهِ مِنَ التَّوحيدِ، ولا شَيْءَ أبْغَضُ إليهِ مِنَ الشِّرْكِ»[2].

بَلْ إنَّهُ مِنْ أعْظَمِ أسبابِ شَرْحِ الصَّدْرِ، قال ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «أعْظَمُ أسْبَابِ شَرْحِ الصَّدْرِ التَّوحيدُ، وعلىٰ حَسَبِ كَمَالِهِ وقُوَّتِهِ وزيادتِهِ يكونُ انشراحُ صَدْرِ صَاحِبِهِ»[3].

---

(١) «موسوعةُ الرَّدِّ علىٰ المذاهبِ الفكريَّةِ» (٤٦/ ٤٣).

(٢) «الاستقامة» (٣٦٤).

(٣) «زاد المعاد» (٢/ ٢٢).

كما أنَّ ضعفَ العقيدةِ مرَضٌ حقيقيٌّ، يحتاجُ إلى علاجٍ، قال صالحُ الفوزان - حفظه الله -: «ضَعْفُ العَقيدةِ هُوَ المَرَضُ الحقيقيُّ الَّذي يَجِبُ عِلاجُهُ بمعرفةِ التَّوحيد، والعقيدةِ الصَّحيحةِ»(١).

وبَيْنَ يَدَيْكَ كتابُ «عقيدةُ المُسْلِم، ويَتضمَّنُ: أربعين حَديثًا في العقيدةِ مَعَ الشَّرحِ»، آمُلُ أنْ تَجِدَ فِيهِ ما يَشْرَحُ صَدْرَكَ، ويُنيرُ طَرِيقَكَ، وتَزْدادَ إيمانًا إلى إيمانِكَ، وجميلٌ أنْ تُلقَى على النَّاسِ عَقِبَ الصَّلَواتِ، وتُدَرَّسُ في الحَلَقاتِ، فلا أحْسَنَ قَوْلًا مِمَّنْ بلَّغ عَنْ نبيِّهِ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي، وَلَوْ آيَةً»(٢)، فـ«رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى مِنْ سَامِعٍ»، و«حَامِلِ عِلْمٍ إلَى مَنْ هُوَ أعْلَمُ مِنْهُ».

جَرَى القَلَمُ بما تقدَّمَ.

وكتبهُ

أبو عبد الله

فيصل الحاشدي

١٠/ ١٠/ ١٤٣٨هـ

---

(١) «عقيدة التَّوحيد» (٩٩).

(٢) رواه البخاري (٣٤٦١).

الحديثُ الأوَّلُ

أركانُ الإيمانِ والإسلامِ

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّىٰ جَلَسَ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(١).

الشَّرْحُ:

ذَكَرَ في الحديثِ سِتَّةَ أركانٍ للإيمانِ، وخَمْسَةَ أَرْكانٍ للإسلامِ، ورُكْنًا واحدًا للإحسانِ.

فأركانُ الإيمانِ: الإيمان بالله، وَهُوَ: التَّصديقُ الجازمُ بِوحْدانيَّةِ اللهِ ﷻ،

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٨).



واستحقاقِهِ للعبادةِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وذلك يَشْمَلُ أنواعَ التَّوحيدِ الثَّلاثةَ: الإيمانَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، والإيمانَ بتوحيدِ الأُلوهيَّةِ، والإيمانَ بتوحيدِ الأسماءِ والصِّفَاتِ.

فَمَنْ جَحَدَ نَوْعًا مِنْ هذِهِ الأنواعِ، لَمْ يَكُنْ مُؤْمنًا باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَيدْخُلُ في ذلك: الإيمانُ بالقَدَرِ؛ لأنَّهُ مِنْ تَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وَمِنْ أفْعَالِ اللهِ تَعَالَى، فَهُوَ داخِلٌ في تَوْحِيدِ الرُّبوبيَّةِ، لكنَّهُ أفْرَدَهُ بالذِّكْرِ تأْكيدًا لَهُ.

«وملائكتِهِ»: تُؤْمِنُ أنَّ للهِ ملائكةً، خَلَقَهُمْ تَعَالَى مِنْ نُورٍ، خَلَقَهُمْ لعبادتِهِ: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، يُنَفِّذُونَ أوامِرَهُ تَعَالَى في مُلْكِهِ، ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

فالإيمانُ بالملائكةِ مِنَ الإيمانِ بالغَيْبِ؛ لأنَّنا لا نراهم، ولكنَّ اللهَ أخْبَرَنا عَنْهُمْ، وأخْبَرَنا عنهم رسولُهُ ﷺ، فنحنُ نُؤْمِنُ بِهِمْ.

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بالملائكةِ، أو لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِهِمْ؛ فإنَّهُ كافِرٌ باللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

«وكتبه» وهي: الكُتُبُ الَّتي أوْحَاها اللهُ - تعالىٰ - إلىٰ رُسُلِهِ.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بالكُتُبِ مِنْ أوَّلِهَا إلىٰ آخِرِهَا، فإنَّهُ كافِرٌ.

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

وَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِ الكُتُبِ، وكَفَرَ بِبَعْضِهَا: كاليَهُودِ، والنَّصارَىٰ - فَهُمْ كُفَّار - أيضًا -.

إنَّما الإيمان هُوَ: الإيمانُ بجميعِ الكُتُبِ مِنْ أوَّلِها إلىٰ آخِرِها ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

فالَّذي يَكْفُرُ بكتابٍ واحدٍ مِنْ كُتُبِ اللهِ، يكونُ كافرًا بالجميعِ.

«وَرُسُلِهِ» كذلك يَجِبُ الإيمانُ بجميعِ الرُّسُلِ مِنْ أَوَّلِهِمْ إلىٰ آخِرِهِمْ، مَنْ سَمَّىٰ اللهُ منهم، وَمَنْ لَمْ يُسَمِّ، نُؤْمِنُ بجميعِ الرُّسُلِ - عليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ -.

فَمَنْ آمَنَ بِبَعْضِهِمْ، وكَفَرَ بِبَعْضِهِمْ، فهو كافرٌ بالجميعِ: كحالةِ الْيَهُودِ، والنَّصارَىٰ الَّذين يكفُرن بمحمَّدٍ ﷺ، والْيَهُودُ يَكْفُرونَ بعيسىٰ وبمحمَّدٍ - عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ -.

«واليومِ الآخِرِ» يَوْمِ القيامةِ، يَجِبُ الإيمانُ باليومِ الآخِرِ، وَهُوَ: ما بَعْدَ الموتِ ممَّا أخبر اللهُ - تعالىٰ - بِهِ، وأخبر به رسولُهُ ﷺ مِنْ أحوالِ البَرْزَخِ، ثُمَّ البَعْثِ والنُّشُورِ، والقيامِ مِنَ القُبُورِ، ثُمَّ الوُقُوفِ في المَحْشَرِ، ثُمَّ الحِسابِ، ثُمَّ المِيزانِ، ثُمَّ تَطايُرِ الصُّحُفِ، فالمُؤْمِنُ يَأْخُذُ كِتابَهُ بيمينِه، وغَيْرُ المُؤْمِنِ يَأْخُذُ كتابَهُ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ المُرورِ علىٰ الصِّراطِ، ثُمَّ الاستقرارِ في الْجَنَّةِ أَوْ في النَّارِ، هذا كُلُّهُ يَشْمَلُهُ الإيمانُ باليومِ الآخِرِ.

فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ باليومِ الآخِرِ، فإِنَّهُ - وَلَوْ آمن باللهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورُسُلِهِ - إذا جَحَدَ البَعْثَ والْيَوْمَ الآخِرَ، كان كافرًا بالجميعِ.

«وتؤمنَ بالْقَدَرِ» وَهُوَ: أَنْ تُؤْمِنَ بقَضَاءِ اللهِ وقَدَرِهِ. وأَنَّهُ لا يَجْرِي في هذا الكَوْنِ شَيْءٌ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَهُ اللهُ في الأَزَلِ، وَكَتَبَهُ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ، وشاءَهُ وأَرادَهُ ﷻ، ثُمَّ خَلَقَهُ وأَوْجَدَه(١).

فالإيمانُ بالقَضاءِ والْقَدَرِ يتضمَّنُ أَرْبَعَ مَراتِبَ:

المرتبة الأولىٰ - العلم: وهو الإيمانُ بأَنَّ اللهَ عالمٌ بكُلِّ شَيْءٍ، يَعْلَمُ ما كان، وما

---

(١) «إعانة المستفيد بشرح كتاب التَّوحيد» (٢/ ٢٥٣).

سيكونُ، وما لَمْ يَكُنْ لَوْ كان كَيْفَ سيكونُ. قال - تبارك وتعالىٰ -: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾. (الطلاق ١ - ١٢).

المرتبة الثانية - الكتابة: هي الرُّكْنُ الثَّاني مِنْ أَرْكَانِ الْقَدَرِ، وهي الإيمانُ بأنَّ اللهَ - تبارك وتعالىٰ - كَتَبَ ما سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ مِنْ مَقَادِيرِ الخلائِقِ إِلىٰ يَوْمِ القيامةِ في اللَّوْحِ المَحْفُوظِ. قال - تبارك وتعالىٰ -: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

المرتبة الثالثة - المشيئة: وهي الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ القَدَرِ، ويَقْتَضي هذا الرُّكْنُ الإيمانَ بمشيئةِ اللهِ النافذةِ، وقُدْرَتِهِ الشَّامِلَةِ. فما شاء كان، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وأنه لا حركةَ، ولا سُكُونَ، ولا هِدَايَةَ، ولا إضلالَ إلَّا بمشيئةِ اللهِ - تبارك وتعالىٰ -: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [القصص: ٦٨].

المرتبة الرَّابعة - الخلق: وهذا الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أركانِ القَدَرِ، ويَقْتَضِي الإيمانَ بأنَّ جميعَ الكائناتِ مخلوقاتٌ للهِ بذَوَاتِها وصفاتِهَا وحَرَكَاتِها، وبأنَّ كُلَّ مَنْ سِوَىٰ اللهِ مَخْلُوقٌ، مُوجَدٌ مِنَ الْعَدَمِ، كائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ[1]. قال الله - تبارك وتعالىٰ -: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال الله - تبارك وتعالىٰ -: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

---

(١) «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» (٢/ ٢٥١ - ٢٥٤) صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان.

الحديثُ الثَّاني

توحِيدُ الألُوهيَّة

عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ، يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟». قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»[(١)].

الشَّرْحُ:

بَيَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ في هذا الحديثِ الغايةَ الَّتي خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ مِنْ أجلِها، ألا وَهِيَ إفرادُ اللهِ وَحْدَهُ بالعبادةِ، والإخلاصُ لَهُ، وهذا هُوَ حَقُّ اللهِ علىٰ عبادِهِ.

قَوْلُهُ: «وما حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟» أيْ: أنَّ ذلك حَقٌّ كتبه اللهُ - تعالىٰ - علىٰ نَفْسِهِ تَفَضُّلًا وإحسانًا، وَهُوَ مُتحقِّقٌ لا مَحَالَةَ.

﴿وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

يَقُولُ ابنُ تَيْمِيَّةَ رحمه الله: «كَوْنُ المُطِيعِ يَسْتَحِقُّ الجَزَاءَ فَهُوَ استحقاقُ إنعامٍ وفَضْلٍ مِنَ اللهِ، لَيْسَ استحقاقَ مُقَابلةٍ، كما يستحِقُّ المَخْلُوقُ علىٰ المخلوقِ».

وما أَحْسَنَ قَوْلَ القَائِلِ:

إنْ عُـــذِّبُوا فَبِعَدْلِـــهِ أَوْ نُعِّمُـــوا ... فَبِفَـــضْلِهِ وَهْـــوَ الكَـــرِيمُ الواسِـــعُ

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٥٦)، وَمُسْلِمٌ (٣٠).

قَوْلُهُ: «حَقُّ اللهِ علىٰ العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، ولا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» أيْ: يُوَحِّدونَهُ بالعبادةِ، ولا يُشْرِكون مَعَهُ أَحَدًا، بَلْ يَتَجَرَّدُوا مِنَ الشِّرْكِ كُلِّهِ خَفِيِّهِ وَجَلِيِّهِ.

قَوْلُهُ: «وَحَقُّ العِبَادِ علىٰ اللهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» وهذا تُفَسِّرُهُ الرِّوايةُ الأُخْرَىٰ: «ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأَنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ - إلَّا حَرَّمَهُ اللهُ علىٰ النَّارِ». لذا قال الحافظُ في «الفتح» عَنِ الرِّوايةِ الأُولَىٰ: «اقْتَصَرَ علىٰ نَفْيِ الإشراكِ؛ لأنَّهُ يَسْتَدْعِي التَّوحيدَ بالاقتضاءِ»[1]. وهذِهِ البِشَارةُ العظيمةُ تَحْصُلُ لِمَنْ حقَّقَ التَّوحيدَ.

قَوْلُهُ: «أفلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟» أيْ: يُبَشِّرُهُمْ بفَضْلِ مَنْ حقَّقَ التَّوحيدَ، وتمسَّك به، وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ التَّبشيرَ مَطْلُوبٌ فيما يَسُرُّ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ والدُّنيا.

قَوْلُهُ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلوا» الاتِّكال: هُوَ الاعتمادُ علىٰ شَيْءٍ، وَالْمَعْنَىٰ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَشِيَ أَنَّ مُعاذًا لَوْ أَخْبَرَ النَّاسَ بالبِشَارةِ السَّابقةِ أَنْ يَعْتَمِدُوا علىٰ ذلك، وَيَتْرُكُوا التَّنافُسَ في عَمَلِ الصَّالحاتِ.

قال ابنُ عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ هذِهِ المسألةَ لا يَعْرِفُها أكثرُ الصَّحابةِ، وذلك أنَّ مُعاذًا أخبَرَ بها تَأَثُّمًا، أيْ: خُرُوجًا مِنْ إِثْمِ الكِتْمَانِ عِنْدَ مَوْتِهِ، بَعْدَ أَنْ مات كثيرٌ مِنَ الصَّحابةِ، وكأنَّهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَلِمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يَخْشَىٰ أَنْ يَفْتَتِنَ النَّاس بها، ويتكلوا، وَلَمْ يُرِدْ ﷺ كَتْمَها مُطْلَقًا؛ لأنَّهُ لَوْ أراد ذلك، لَمْ يُخْبِرْ بها مُعاذًا، ولا غَيْرَهُ»[2].

وقال: «جَوَازُ كِتْمَانِ العِلْمِ للمَصْلَحَةِ، هذِهِ لَيْسَتْ علىٰ إطْلَاقِهَا؛ إذْ إنَّ كِتْمَانَ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٢٨).

(٢) «القول المفيد» (١/ ٥٤ - ٥٥).

العِلْمِ علىٰ سبيلِ الإطْلَاقِ لا يَجُوزُ؛ لأنَّهُ لَيْسَ بمصلحةٍ، ولهذا أخبر النَّبِيُّ ﷺ مُعاذًا، ولم يَكْتُمْ ذلك مُطْلقًا، وأمَّا كِتْمَانُ العِلْمِ في بَعْضِ الأَحْوالِ، أو عَنْ بَعْضِ الأشخاصِ - لا علىٰ سبيلِ الإطْلاقِ - فجائزٌ للمصلحةِ، كما كَتَمَ النَّبِيُّ ﷺ ذلك عَنْ بَقِيَّةِ الصَّحابةِ؛ خَشْيَةَ أَنْ يتَّكلوا عَلَيْهِ، وقال لمُعَاذٍ: «لا تُبَشِّرْهُمْ فيتَّكلوا».

ونظيرُ هذا الحديثِ قَوْلُهُ ﷺ لأبي هُرَيْرَةَ: «بَشِّرِ النَّاس أَنَّ مَنْ قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ خالصًا مِنْ قَلْبِهِ دَخَلَ الجنَّةَ». بَلْ قَدْ تَقْتَضِي المصلحةُ تَرْكَ العَمَلِ، وإنْ كان فِيهِ مَصْلَحةٌ لِرُجْحَانِ مَصْلَحةِ التَّرْكِ، كما هَمَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَهْدِمَ الكَعْبَةَ، وَيَبْنِيها علىٰ قَوَاعِدِ إبراهيمَ، ولكنْ تَرَكَ ذلك خَشْيَةَ افْتِتَانِ النَّاسِ؛ لأنَّهُمْ حَدِيثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ[(١)]»[(٢)].

(١) رواه البخاريُّ (١٥٨٤)، ومسلم (٣٩٩).

(٢) «القول المفيد» (١/ ٥٥).

الحديثُ الثَّالِثُ

تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ

عَنِ العبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه قال: إِنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ رَسُولًا»(١).

الشَّرْحُ:

في الحديثِ دلالةٌ على أنَّه يَجِبُ على العَبْدِ الرِّضا باللهِ - سبحانه - رَبًّا وإلهًا، وحاكمًا ومُشَرِّعًا؛ لأنَّ الرِّضا برُبُوبيَّتِهِ عز وجل هُوَ رِضَا العَبْدِ بما يَأْمُرُهُ بِهِ ربُّهُ، ويَنْهاهُ عَنْهُ، وَيَقْسِمُهُ لَهُ، ويُقَدِّرُهُ عَلَيْهِ، ويُعْطِيهِ إيَّاه، ويَمْنَعُهُ مِنْهُ، فَمَنْ لَمْ يُحَصِّلِ الرِّضَى بذلك كُلِّهِ، لَمْ يَكُنِ العَبْدُ قَدْ رَضِيَ بِهِ رَبًّا مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، ولا يَذُوقُ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمانِ حتَّى يَأْتِيَ بكُلِّ مُوجباتِ الرُّبوبيَّةِ ولَوازِمِهَا، وهذا مَعْنَى قَوْلِهِ: «ذاق طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا». وَمَتَى ذاق العَبْدُ طَعْمَ الإيمانِ؛ فلا تَسْأَلْ عَنْ سَعادَتِهِ وأُنْسِهِ، وطُمَأْنِينته وثباته، وَلَوِ احْتَوَشَتْهُ البَلَايَا والرَّزَايَا، كما أَنَّ مَنْ هذا شَأْنُهُ فإنَّ طاعاتِ اللهِ عز وجل تَسْهُلُ عَلَيْهِ، وتَلَذُّ لَهُ، كما يَكُونُ في قَلْبِهِ كُرْهُ مَعاصِي اللهِ عز وجل، والنُّفُورُ مِنْهَا.

فتضمَّن الحديثُ توحيدَ الرُّبوبيَّة، وهُوَ: إفرادُ اللهِ بأفعالِهِ: كالخَلْقِ، والمُلْكِ، والرِّزْقِ، والتَّدبيرِ قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١] وتَوحِيدُ الرُّبوبيَّةِ أمْرٌ فِطْرِيٌّ، أقرَّتْ بِهِ جميعُ المِلَلِ والنِّحَلِ(٢) إلَّا

(١) رواه مسلم (٣٤).

(٢) النِّحَل - زِنَةِ المِلَلِ -: الدِّيانات، واحدتُها نِحْلَةٌ.

مَنْ كابر وعاند: كفِرعونَ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٣ - ٢٧] وَهُنا سُؤالٌ، وهُوَ: هَلْ توحيدُ الرُّبوبيَّةِ يُدْخِلُ العَبْدَ في الإسلامِ، ويَحصلُ بِهِ حلاوة الإيمانِ؟

الجوابُ: لا؛ لأنَّ توحيدَ الرُّبُوبيَّةِ مُسْتَلْزِمٌ لتوحيدِ الألُوهيَّةِ، بمعنىٰ: أنَّ الإقرارَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ يُوجِبُ الإقرارَ بتوحيدِ الألُوهيَّةِ. فَمَنْ عرف أنَّ اللهَ رَبُّهُ وخالقُهُ ومُدَبِّرُ أُمُورِهِ، وَقَدْ دَعاهُ هذا الخالقُ إلىٰ عِبادتِهِ، وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُدَهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ؛ فإذا كان هُوَ الخالقُ الرازقُ النَّافِعُ الضَّارُّ وَحْدَهُ، لَزِمَ إفرادُهُ بالعبادةِ.

ولأنَّ توحيدَ الألُوهيَّةِ مَتضَمِّنٌ لتوحيدِ الرُّبُوبيَّةِ، بمعنىٰ: أنَّ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ يَدْخُلُ ضِمْنًا في تَوْحِيدِ الألُوهيَّةِ، فَمَنْ عَبَدَ اللهَ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ، فلا بُدَّ أنْ يَكُونَ مُعْتَقِدًا أنَّهُ ربُّهُ وخالقُهُ ورازقُهُ؛ إذْ لا يعبدُ إلَّا مَنْ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ والضَّرُّ، ولَهُ الخَلْقُ والأمْرُ[1].

خُلَاصَةُ القَوْلِ: تَوْحِيدُ الرُّبوبيَّةِ لَيْسَ هُوَ الأَصْلُ الَّذي يَدْخُلُ بِهِ العَبْدُ في الإسلامِ، فَلَوْ آمن بتوحِيدِ الرُّبوبيَّةِ، وجعل مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ، لكان بذلك كافرًا بالإجماع، كما أنَّهُ لَوْ آمَنَ بتوحيدِ الإلهيَّةِ، وأفْرَدَ اللهَ بالعبادةِ، غَيْرَ أنَّهُ جَحَدَ تَوْحِيدَ الرُّبوبيَّةِ، لكان كافرًا بالاتِّفاقِ، بَيْدَ[2] أنَّ توحيدَ الإلهيَّةِ يَسْتَلْزِمُ توحيدَ الرُّبُوبيَّةِ، كما أنَّ توحيدَ الرُّبُوبيَّةِ يتضمَّنُ توحيدَ الإلهيَّةِ، وكذلك لو آمَنَ بتوحيدِ الإلهيَّةِ، وتوحيدِ الرُّبُوبيَّةِ، وكفر بالأسماءِ والصِّفَاتِ - لَمْ يَكُنْ بذلك مُسْلمًا، فَلَوْ أفْرَدَ اللهَ بالعبادةِ، وخصَّهُ بالذِّكْرِ، واعْتَقَدَ أنَّ اللهَ هُوَ الخالقُ الرازقُ المُدَبِّرُ، ولم يَعْبُدْ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ، غَيْرَ أنَّهُ قال: لا أُثبِتُ صفاتِ اللهِ ﷻ ولا أسماءَهُ - لكان بهذا كافرًا.

---

(١) «الإرشادة لمحمد الحمد (٢١).

(٢) بَيْدَ أنَّ: غَيْرَ أنَّ.

الحديثُ الرّابعُ

توحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ - يَعْنِي: ابْنَ مَسْعُودٍ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا - قَطُّ - هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ - أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي - إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَجًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»(١).

الشَّرْحُ:

ففي هذا الحديثِ دلالةٌ على أنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ أسماءً لَمْ يُنْزِلْها في كتابِهِ، ولم يُعلِّمْها لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، بَلِ اسْتَأْثَرَ بها في عِلْمِهِ - سبحانه - وحَجَبَها عن خَلْقِهِ، ولم يُظْهِرْهَا لَهُمْ.

ولَمْ يَثْبُتْ في سَرْدِ الأسماءِ حَدِيثٌ، أَمَّا حَدِيثُ أبي هُرَيْرَةَ الَّذي وردتْ فيه الأسماءُ التِّسْعَةُ والتِّسْعُونَ - فهذا الحديثُ لا يَصِحُّ.

وَقَدِ اجْتَهَدَ بَعْضُ العُلَماءِ في استخراجِ تِسْعَةٍ وتِسْعِينَ اسْمًا مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ، منهمُ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ(٢)، ومنهمُ الشيخُ محمَّدُ بْنُ عثيمين(٣)، وهذِهِ الكُتُبُ مُتَّفِقةٌ في أكثرِ

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣٧١٢)، والحاكم (١/ ٥٠٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٩٩).

(٢) في كتابه «فتح الباري» (١١/ ٢١٥)، وفي «التَّلخيص الحبير» (٤/ ١٧٢).

(٣) في كتابه «القواعد المُثْلَى» (١٥، ١٦).

الأسماءِ، ويُوجَدُ في أحدِهَا ما لا يُوجَدُ في الآخَرِ.

قال ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: (الأسماءُ الحُسْنَىٰ لا تَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، ولا تُحَدُّ بعَدَدٍ؛ فإنَّ للهِ - تعالىٰ - أسماءً وصفاتٍ، استأثر بها في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَهُ، لا يَعْلَمُها مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ: «أسألُكَ بكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سمَّيتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كتابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ». فَجَعَلَ أسماءَهُ ثلاثةَ أقْسَامٍ: قِسْمٍ سمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ، فأظهره لِمَنْ شاء مِنْ ملائكتِهِ أو غَيْرِهِمْ، ولم يُنْزِلْ بِهِ كِتَابَهُ، وَقِسْمٍ أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، فتعرَّف بِهِ إلىٰ عِبَادِهِ، وَقِسْمٍ استأثر بِهِ في عِلْمِ غَيْبِهِ، فَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولهذا قال: «اسْتَأْثَرْتَ بِهِ» أي: انْفَرَدْتَ بِعِلْمِهِ)(١).

وما استأثر اللهُ - تعالىٰ - بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ لا يُمْكِنُ أحدًا حَصْرُهُ، ولا الإحاطةُ بِهِ.

قال ابْنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في قَوْلِهِ ﷺ: «استأثرْتَ بِهِ»: «أي: انْفَرَدْتَ بِعِلْمِهِ، ولَيْسَ المُرادُ انفرادَهُ بالتَّسمِّي بِهِ؛ لأنَّ هذا الانفرادَ ثابتٌ في الأسماءِ الَّتي أنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ»(٢).

وأمَّا قَوْلُهُ ﷺ في الحديثِ: «إنَّ للهِ تِسْعةً وتِسْعينَ اسْمًا مِائَةً إلَّا واحِدًا، مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجَنَّةَ»(٣) - فَلَا يَدُلُّ علىٰ حَصْرِ الأسماءِ بهذا العَدَدِ، وَلَوْ كان المُرادُ الحَصْرَ، لكانتِ العبارةُ «إنَّ أسماءَ اللهِ تسعةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا، مَنْ أحْصَاها دَخَلَ الجَنَّةَ».

قال ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ في بيانِ مراتبِ إحصاءِ أسماءِ اللهِ، الَّتي مَنْ أحصاها دَخَلَ الجَنَّةَ: «المرتبةُ الأُولىٰ: إحصاءُ ألْفَاظِها وعَدَدِهَا.

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧١)، وانظر أيضًا «شفاء العليل» (٢٧٧).

(٢) المرجع السَّابق (١/ ١٧١).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٧٣٦) ومسلم (٢٠٦٢).

المرتبةُ الثَّانيةُ: فَهْمُ مَعَانِيها ومَدْلُولِهَا.

المرتبةُ الثَّالثةُ: دُعَاؤُهُ بها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وهُوَ مَرْتَبَتَانِ؛ إحداها: دُعَاءُ ثناءٍ وعِبادةٍ، والثَّاني: دُعاءُ طَلَبٍ ومسألةٍ»[(١)].

---

(١) «بدائع الفوائد» (١/ ١٧١).

الحديثُ الخامِسُ

توحيدُ الرَّسُولِ بالمتابعةِ

عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّىٰ بِنَا رَسُول الله ﷺ ذات يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنا، فَوَعَظَنا مَوْعِظَةً بليغةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنهَا الْقُلُوبُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّهَا مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ؛ فأوصنا. قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَىٰ اللهِ عز وجل، والسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِن تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ؛ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كثيرًا، فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ [الرَّاشِدِينَ] الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجِذِ، وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «وَعَظَنَا» الْوَعْظُ: التَّذكيرُ بما يُلَيِّنُ القَلْبَ، سَوَاءٌ كانَتِ المَوْعِظَةُ تَرْغِيبًا أَوْ تَرْهِيبًا، وكانَ النَّبِيُّ ﷺ يتخوَّلُ أَصْحَابَهُ بالموعظةِ أَحْيَانًا(٢).

وَقَوْلُهُ: «وَجِلَتْ مِنهَا القُلُوبُ» أَيْ: خافتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، كما قال اللهُ - تعالىٰ -: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: الآية ٢].

«وَذَرَفَت مِنها الْعُيُونُ» أَيْ: ذَرَفَتِ الدُّمُوعُ، وَهُوَ كِنايَةٌ عَنِ الْبُكَاءِ.

«فَقُلْنَا: يَا رَسُول اللهِ، كَأَنَّها» أَيْ: هٰذِهِ الموعظةَ «مَوعِظَةُ مُوَدِّعٍ» وذلك لتأثيرِها في

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (١٧١٨٤)، وأبو داوُدَ (٤٦٠٧)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٥٤٩)، وحسَّنه شيخُنا الوادعِيُّ في «الصَّحيح المسند» (٩٢١).

(٢) يعني: لا يُكثِرُ الوَعْظَ عليهم، مع أنَّ كلامَهُ ﷺ محبوبٌ إلىٰ النُّفوس، لكنْ خَشيةَ السَّآمةِ.

إلقائِها، وفي مَوْضُوعِهَا.

«قَالَ: أُوصيكُم بِتقوىٰ اللهِ عَزَّوَجَلَّ» هذِهِ الوصيَّةُ مَأْخُوذةٌ مِنْ قَوْلِ اللهِ - تعالىٰ -: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ومعنىٰ التَّقْوىٰ: طاعةُ اللهِ بامتثالِ أَمْرِهِ، واجْتِنابِ نَهْيِهِ علىٰ عِلْمٍ وبَصِيرةٍ.

«وَالسَّمعُ والطَّاعَة» أيْ: لولاةِ الأَمْرِ بدليلِ قَوْلِهِ: «وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ»، والسَّمْعُ والطاعةُ بِأَنْ تَسْمَعَ إذا تكلَّم، وأَنْ تُطِيعَ إذا أَمَرَ.

«وإن تأمَّر عَليكُم» أيْ: صار أميرًا، «عَبْدٌ» أيْ: مَمْلُوكٌ.

«فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُم» أيْ: تَطُولُ بِهِ الحياةُ «فَسَيَرىٰ اختِلَافًا كَثيرًا» في العقيدةِ، وفي العملِ، وفي المَنْهَجِ، وهذا الَّذي حَصَلَ.

فالصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ الَّذين عاشُوا طَوِيلًا - وَجَدُوا مِنَ الِاختلافِ والفِتَنِ والشُّرورِ ما لَمْ يَكُنْ لَهُمْ في الحُسْبَانِ.

ثُمَّ أرشدهُمْ ﷺ إلىٰ ما يَلْزَمُونَهُ عِنْدَ هذا الاختلافِ، فقال: «فَعَلَيكُم بِسنتي» أيْ: الزَمُوا سُنَّتي، والمُرادُ بالسُّنَّةِ هُنَا: الطَّرِيقةُ الَّتي هُوَ عليها، فلا تبتدعُوا في دِينِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ مَا لَيْسَ مِنْهُ، ولا تَخْرُجُوا عَنْ شَرِيعتِهِ.

«وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدين» الخلفاء: الَّذين يَخْلُفُونَ رسولَ اللهِ ﷺ في أُمَّتِهِ، وعلىٰ رَأْسِهِمْ أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ الخليفةُ مِنْ بَعْدِهِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ عُثْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، هَؤلاءِ هُمُ الخُلَفاءُ الرَّاشِدُونَ.

وقوله: «المهديِّين» صفةٌ مُؤَكِّدةٌ لما سَبَقَ؛ لأنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِمْ راشِدِينَ أنْ يَكُونُوا مَهْدِيِّينَ، إذْ لا يُمْكِنُ رُشْدٌ إلَّا بهدايةٍ.

«عَضُّوا عَلَيهَا» أيْ: علىٰ سُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ «بالنَّوَاجِذِ» وهي أقصَىٰ الأَضْرَاسِ، وَمِنَ المَعْلُومِ أنَّ السُّنَّةَ لَيْسَتْ جِسْمًا يُؤْكَلُ، لكنْ هذا كنايةٌ عَنْ شِدَّةِ التمسُّكِ بها، أيْ: أنَّ الإنسانَ يتمسَّكُ بهذِهِ السُّنَّةِ حتَّىٰ يَعَضَّ عَلَيْهَا بأقْصَىٰ أضْرَاسِهِ.

«وَإِيَّاكُم» لمَّا حثَّ علىٰ التَّمسُّكِ بالسُّنَّةِ، حَذَّرَ مِنَ البِدْعَةِ.

«وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأمُورِ» أي: اجْتَنِبُوهَا، والمُرادُ بالأُمُورِ هُنَا: الشُّؤونُ، والمُرادُ بالشُّؤونِ: شُؤونُ الدِّينِ، لا المُحْدَثَاتُ في أمورِ الدُّنيا؛ لأنَّ المُحْدَثَاتِ في أُمُورِ الدُّنيا مِنْهَا ما هُوَ نافعٌ، فَهُوَ خيرٌ، ومنها ما هو ضَارٌّ، فَهُوَ شَرٌّ، لكنِ المُحْدَثَاتُ في أمورِ الدِّين كُلُّها شَرٌّ، ولهذا قال: «فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ» لأنَّها ابْتُدِعَتْ وأُنْشِئَتْ مِنْ جَدِيدٍ.

«كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالَةٌ» أيْ: كُلَّ بِدْعَةٍ في دِينِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فهي ضَلَالَةٌ[1].

---

(١) «التلخيص المعين في شرح الأربعين» (١٤١ - ١٤٣) للعثيمين باختصارٍ يسيرٍ.

الحديثُ السّادِسُ

فَضلُ التّوحيد

عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنْ لا إلَهَ إِلَّا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «وَهُوَ يعلمُ أَنْ لا إلَهَ إِلَّا اللهُ» أَيْ: وهُوَ يعلمُ أَنْ لَا معبودَ حَقٌّ إِلَّا اللهُ، وكلمةُ التَّوحيدِ تَشْتَمِلُ على رُكْنَيْنِ: نَفْيٍ عامٍّ فِي أَوَّلِها، وإِثباتٍ خاصٍّ في آخِرِها، ففي أَوَّلِهَا نَفْيُ العِبادَةِ عَنْ كُلِّ مَنْ سِوَى اللهِ، وفي آخِرِها إثباتُ العِبادةِ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وخَبَرُ لا النَّافيةِ للجِنْسِ تقديرُهُ «حَقٌّ»، ولا يَصْلُحُ أَنْ يُقَدَّرَ «مَوْجُودٌ»؛ لأَنَّ الآلهةَ الباطلةَ مَوْجُودةٌ وكَثِيرةٌ، وإنَّما المَنْفِيُّ الأُلوهيَّةُ الحَقَّةُ، فإنَّها مُنتَفِيَةٌ عَنْ كُلِّ مَنْ سِوَى اللهِ، وثابتةٌ للهِ وَحْدَهُ.

فَتِلْكَ هي كَلِمَةُ التَّوحيدِ الَّتي يَجِبُ تَعَلُّمُها، وتَعْلِيمُهَا للنَّاسِ، كما أَنَّها لا تَنْفَعُ قائِلَها إلَّا إذا عَمِلَ بشُرُوطِها؛ فَقَدْ كان المُنافِقُونَ يَقُولُونها وَهُمْ في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ؛ لأنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَا، ولَمْ يَعْمَلُوا بشُرُوطِهَا، وكذلك اليهودُ تَقُولُها وَهُمْ مِنْ أَكْفَرِ النَّاسِ لِعَدَمِ إيمانِهِمْ بها.

وهكذا عُبَّادُ القُبُورِ والأَوْلِيَاءِ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَقُولُونها بألسنتِهِمْ، وهُمْ يُخَالِفُونها بأقوالِهِمْ، وأَفْعَالِهِمْ، وعَقِيدَتِهِمْ؛ فلا تَنْفَعُهُمْ، ولا يَكُونُون بقَوْلِهَا مُسْلِمِينَ؛ لأنَّهُمْ ناقِضُوها بأَقْوالِهِمْ، وأعمالِهِمْ، وعَقَائِدِهِمْ، وهذا يتضمَّنُ شُرُوطَهَا.

---

(١) رواه مسلم (٢٦).

شُرُوطُ لا إلهَ إلَّا اللهُ:

ذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ لها سَبْعَةَ شُرُوطٍ[(١)]، وَنَظَمَها بَعْضُهُمْ بِقَوْلِهِ:

العِلْـــمُ، والْيَقِـــينُ، والْقَبُـــولُ   والانقيـــادُ، فَـــادْرِ مـــا أَقُـــولُ

والـصِّدْقُ، والإِخْـلاصُ، والْمَحَبَّـةْ   وَفَّقَـــكَ اللهُ لِمَـــا أَحَبَّـــهْ[(٢)]

وَقَدْ زاد بَعْضُهُم شَرْطًا ثامِنًا، فقال:

عِلْمٌ، يَقِينٌ، وإِخْلاصٌ، وَصِدْقُكَ مَعْ   مَحَبَّـةٍ، وانْقِيَـادٍ، والْقَبُـولِ لَهَـا

وَزِيـدَ ثَامِنُهَـا الكُفْـرَانُ مِنْـكَ بِمَـا   سِوَى الإلهِ مِنَ الأَنْدادِ قَدْ أُلِهَا[(٣)(٤)]

وهذانِ البَيْتانِ قَدِ اسْتَوْفَيا جميعَ شُرُوطِها:

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: العِلْمُ بمَعْناها المُنَافِي للجَهْلِ، وتقدَّم أنَّ مَعْنَاها: لا مَعْبُودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ – تعالىٰ –، فجميعُ الآلِهةِ الَّتي يَعْبُدُها النَّاسُ سِوَىٰ اللهِ – تعالىٰ – كُلُّها باطلةٌ، قال – تعالىٰ –: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»[(٥)].

الشَّرْطُ الثَّاني: اليقينُ المُناقي للشَّكِّ، فلا بُدَّ في حقِّ قائِلِهَا أَنْ يَكُونَ علىٰ يَقينٍ بأنَّ اللهَ – تعالىٰ – هُوَ المعبودُ بحقٍّ؛ فإنَّ الإيمانَ لا يُغْنِي فِيهِ إلَّا عِلْمُ اليقينِ، فلا عِلْمُ الظَّنِّ أوِ

---

(١) انظر «فتح المجيد» (٩١).

(٢) «معارج القبول» للحافظ الحكميِّ (٢/ ٤١٨).

(٣) أُلِهَا أيْ: عُبِدَ، والألِفُ للإطْلاقِ.

(٤) «تحفة الإخوان بأجوبةٍ مُهِمَّةٍ تتعلَّقُ بأركانِ الإسلامِ» للإمام ابن باز (٢٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦).

التَّوَقُّفِ والتَّرَدُّدِ، فكيف إذا دَخَلَهُ الشَّكُّ، قال - تعالى -: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

الشَّرْطُ الثَّالِثُ: القَبُولُ المُنَافي للرَّدِّ، وذلك أَنْ يَقْبَلَ ما دلَّتْ عَلَيْهِ هذِهِ الكلمةُ بقَلْبِهِ ولِسانِهِ، ويَرْضَىٰ بذلك؛ ولهذا كان المُشْرِكُونَ يَعْرِفُونَ مَعْنَىٰ لا إله إلَّا اللهُ، ولكنَّهم لم يَقْبَلُوها، فذمَّهمُ اللهُ - تعالىٰ - وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات، الآية: ٣٥].

الشَّرْطُ الرَّابِعُ: الانقيادُ المُنافي للتَّرْكِ، فينقادُ لما دلَّتْ عَلَيْهِ، ويَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، ويعملُ بشَرِيعتِهِ، ويُؤْمِنُ بها، ويَعْتَقِدُ أنَّها الحَقُّ، ولعلَّ الفَرْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ القَبُولِ: أنَّ الانقيادَ هُوَ الاتِّباعُ بالأفعَالِ، والقَبُولَ إِظْهَارُ صِحَّةِ مَعْنَىٰ ذلك بالقَوْلِ.

الشَّرْطُ الخَامِسُ: الصِّدْقُ المُنافي للكَذِبِ، وهُوَ أَنْ يَقُولَها وَهُوَ صادقٌ في ذلك صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، يُطابِقُ قَلْبُهُ لِسانَهُ، ولِسانُهُ قَلْبَهُ؛ فإنْ قالها باللِّسانِ فَقَطْ، وقَلْبُهُ لَمْ يُؤْمِنْ بمَعْنَاها، فيكونُ مِنْ جُمْلَةِ المُنافقين، كما قال - سبحانَهُ - عنهمْ أنَّهم قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فكذَّبهمُ اللهُ، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١].

وَقَدْ ثَبَتَ اشتراطُ الصِّدْقِ فِي الشَّهادةِ فِي الحديثِ الصَّحيحِ، قال ﷺ: «ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إله إلَّا اللهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إلَّا حَرَّمه اللهُ على النَّارِ»(١).

الشَّرْطُ السَّادِسُ: الإخلاصُ المُنافي للشِّرْكِ، وهو تَصْفِيةُ العَمَلِ بصالحِ النِّيَّةِ عَنْ جميعِ شَوائِبِ الشِّرْكِ، فَيُخلِصُ العَبْدُ لربِّهِ في جميعِ العباداتِ، وإذا صَرَفَ شَيْئًا مِنْهَا لغيرِ اللهِ: مِنْ نَبِيٍّ، أو وليٍّ، أوْ مَلكٍ، أو صَنَمٍ، أو جِنِّيٍّ، أو غَيْرِ ذَلِكَ - فَقَدْ أشرك باللهِ،

(١) رواه البخاريُّ (٩٩).

ونَقَضَ هذا الشَّرْطَ، وهُوَ شَرْطُ الإِخْلاصِ.

قال - تعالىٰ -: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣].

وقال ﷺ: «أَسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي يَوْمَ القيامةِ مَنْ قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِهِ»(١).

الشَّرْطُ السَّابِعُ: المَحَبَّةُ المُنافيةُ للبُغْضِ، فَيَجِبُ على العَبْدِ أَنْ يُحِبَّ اللهَ ﷻ، فيحبَّ كلمةَ التَّوحيدِ، ويُحِبَّ ما اقتضتْهُ ودلَّتْ عَلَيْهِ، قال - تعالىٰ -: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: مَنْ كان اللهُ ورسولُهُ أَحَبَّ إليهِ ممَّا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»(٢).

الشَّرْطُ الثَّامِنُ: الكُفْرُ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَهُوَ أَنْ يتبرأَ مِنْ عبادةِ غَيْرِ اللهِ، ويعتقدَ أنَّها باطلةٌ، كما قال - تعالىٰ -: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَقَدْ ثبت عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قال: «مَنْ قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ - حَرُمَ مالُهُ ودَمُهُ، وحِسابُهُ على اللهِ»(٣)(٤).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٢٨)، ومسلم (٣٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) رواه مسلم (٢٣).

(٤) انظر «العروة الوُثْقَىٰ» للقحطانيِّ (٣٣ - ٣٩) باختصارٍ.

الحديث السابع

التوحيد أول واجب على الناس

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[(١)].

الشَّرْحُ:

قولُهُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -: «إِنَّكَ ستأتي قومًا أهْلَ كتابٍ» كالتَّوطئةِ والتَّمهيدِ للوصيَّةِ باستجماعِ هِمَّتِهِ بالدُّعاءِ لَهُمْ؛ فإنَّ أهْلَ الكتابِ أهْلُ عِلْمٍ، ومُخاطبتُهُمْ لا تكونُ كمخاطبةِ جُهَّالِ المُشْرِكينَ وعَبَدَةِ الأَوْثانِ في العِنايةِ بها[(٢)]. قال: «فَلْيَكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لا إلهَ إِلَّا اللهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ».

فدلَّ علىٰ أنَّ التَّوحيدَ هُوَ شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وتحقيقُ هاتَيْنِ الشَّهادَتَيْنِ هُوَ تحقيقُ التَّوحيدِ[(٣)].

---

(١) رواه البُخاريُّ (١٣٩٥) (٤٣٤٧) ومسلم (٣٠).

(٢) «رياضُ الأفهامِ في شَرْحِ عُمْدَةِ الأحكامِ» للفاكهانيِّ (٣/ ٢٨٨).

(٣) «كفاية المستزيد» (١٧) صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَك بِذَلِكَ» طَاعَتُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِالتَّلَفُّظِ بِالشَّهَادَتَيْنِ. وَأَمَّا طَاعَتُهُمْ فِي الصَّلَاةِ فَيَحْتَمِلُ وَجْهَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ إِقْرَارَهُمْ بِوُجُوبِهَا وَفَرْضِيَّتِهَا عَلَيْهِمْ، وَالْتِزَامُهُمْ لَهَا.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ الطَّاعَةَ بِالْفِعْلِ، وَأَدَاءَ الصَّلَاةِ.

وَقَدْ رُجِّحَ الْأَوَّلُ بِأَنَّ الْمَذْكُورَ فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ هُوَ الْإِخْبَارُ بِالْفَرِيضَةِ[١].

وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي الزَّكَاةِ: لَوِ امْتَثَلُوا بِأَدَائِهَا مِنْ غَيْرِ تَلَفُّظٍ بِالْإِقْرَارِ لَكَفَى. فَالشَّرْطُ عَدَمُ الْإِنْكَارِ، وَالْإِذْعَانُ لِلْوُجُوبِ، لَا التَّلَفُّظُ بِالْإِقْرَارِ[٢].

يَدُلُّ الْحَدِيثُ - أَيْضًا - عَلَىٰ أَنَّ كَرَائِمَ الْأَمْوَالِ لَا تُؤْخَذُ مِنَ الصَّدَقَةِ: كَالْأَكُولَةِ، وَالرُّبَّىٰ - وَهِيَ الَّتِي تُرَبِّي وَلَدَهَا -، وَالْمَاخِضِ - وَهِيَ الْحَامِلُ -، وَفَحْلِ الْغَنَمِ، وَحَزَرَاتِ الْمَالِ - وَهِيَ الَّتِي تُحْزَرُ بِالْعَيْنِ وَتُرْمَقُ؛ لِشَرَفِهَا عِنْدَ أَهْلِهَا -، وَالْحِكْمَةُ فِيهِ: أَنَّ الزَّكَاةَ وَجَبَتْ مُوَاسَاةً لِلْفُقَرَاءِ مِنْ مَالِ الْأَغْنِيَاءِ، وَلَا يُنَاسِبُ ذَلِكَ الْإِجْحَافُ بِأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ، فَسَامَحَ الشَّرْعُ أَرْبَابَ الْأَمْوَالِ بِمَا يَضِنُّونَ بِهِ، وَنَهَىٰ الْمُصَدِّقِينَ عَنْ أَخْذِهِ[٣].

وَفِي الْحَدِيثِ: دَلِيلٌ عَلَىٰ عَظِيمِ أَمْرِ الظُّلْمِ، وَاسْتِجَابَةِ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ، وَذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ عُقَيْبَ النَّهْيِ عَنْ أَخْذِ كَرَائِمِ الْأَمْوَالِ؛ لِأَنَّ أَخْذَهَا ظُلْمٌ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ.

---

(١) «إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام» ابن دقيق العيد (١/ ٣٧٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٧٦).

(٣) المرجع السابق (١/ ٣٧٦ - ٣٧٧).

الحديثُ الثامِنُ

الشِّرْكُ باللهِ أَعظَمُ الذُّنوبِ على الإطلاقِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»(١).

الشَّرْحُ:

(النِّدُّ) هُوَ: الشَّبِيهُ والمَثِيلُ والنَّظِيرُ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ - رحمه الله تعالى -: «فَمَنْ جَعَلَ لِلهِ نِدًّا مِنْ خَلْقِهِ فيما يستحقُّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الإلهيَّةِ والرُّبُوبِيَّةِ - فَقَدْ كَفَرَ بإجماعِ المُسْلِمينَ»(٢).

قَوْلُهُ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ». هذا نَصٌّ صريحٌ على حُرْمةِ قَتْلِ الأولادِ خَشْيَةَ الفَقْرِ، وكان مَوْرِدُ هذا النَّهْيِ بِشَكْلٍ أساسيٍّ أَهْلَ المَوْءُودةِ، الَّذِينَ كانوا يَرَوْنَ قَتْلَ الإناثِ؛ مَخافةَ الإنفاقِ عليهِنَّ، وَعَدَمِ النُّصْرَةِ مِنْهُنَّ، ويدخلُ فِيهِ كُلُّ مَنْ فَعَلَ فِعْلَهُمْ مِنْ قَتْلِ وَلَدِهِ؛ إمَّا خَشْيَةَ الإنفاقِ، أَوْ لِغَيْرِ ذلك مِنَ الأسبابِ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٦١)، ومسلمٌ (٨٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/ ٨٨).

وَقَوْلُهُ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ» قَدْ بَيَّنَ ابْنُ الجَوْزِيِّ الحِكْمَةَ مِنْ تَشْدِيدِ عُقُوبَةِ الزِّنَى مَعَ الجَارَةِ، بِقَوْلِهِ: «وإنَّما كان هذا؛ لأنَّهُ يَضُمُّ إلى مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ انتهاكَ حَقِّ الجارِ»[1].

---

(١) «صيد الخاطر» (٢٨٠).

الحديثُ التاسِعُ

تَعظِيمُ القُبورِ مِنْ أَعْظَمِ أَسبابِ الشِّرْكِ

عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم قالا: لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ[١]، طَفِقَ[٢] يَطْرَحُ خَمِيصَةً[٣] لَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ[٤]، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا[٥]، كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ -: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ اليَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ؛ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا[٦].

الشَّرْحُ:

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيمِيَّةَ رحمه الله: «فحَرَّمَ ﷺ أَنْ تُتَّخذَ قُبُورُهُمْ مَساجِدَ بِقَصْدِ الصَّلَواتِ فيها كما تُقْصَدُ المَساجِدُ، وإنْ كان القاصِدُ لذلك إنَّما يَقْصِدُ عبادةَ اللهِ وَحْدَهُ؛ لأنَّ ذلك ذَريعةٌ إلىٰ أنْ يَقْصِدُوا المَسْجِدَ لِأَجْلِ صاحِبِ القَبْرِ، ودُعائِهِ، والدُّعاءِ بِهِ، والدُّعاءِ عِنْدَهُ، فنهىٰ رسولُ اللهِ ﷺ عَنِ اتِّخاذِ هذا المكانِ لعبادةِ اللهِ وَحْدَهُ؛ لئلَّا يُتَّخذَ ذلك ذَريعةً إلىٰ الشِّرْكِ باللهِ، كذلك لما نَهَىٰ عَنِ اتِّخاذِ قُبورِ الأنبياءِ والصَّالحِينَ مَساجِدَ، نَهَىٰ عَنْ قَصْدِهَا للصَّلاةِ عِنْدَها؛ لئلَّا يُفْضِي ذلك إلىٰ دُعائِهِمْ، والسُّجُودِ لَهُمْ؛ لأنَّ دُعاءَهُمْ، والسُّجُودَ لَهُمْ أعظَمُ تَحْرِيمًا مِنِ اتِّخاذِ قُبُورِهِمْ مَساجِدَ.

---

(١) أيْ: نزل به المَوْتُ ﷺ.

(٢) طَفِقَ أيْ: جَعَلَ يَفْعَلُ كذا.

(٣) الخَمِيصةُ: ثَوْبٌ أسْوَدُ أوْ أحْمَرُ، لَهُ أعلامٌ.

(٤) أيْ: يَجْعَلُها علىٰ وَجْهِهِ مِنَ الحُمَّىٰ.

(٥) أيْ: إذا احْتَبَسَ نَفَسُهُ عَنِ الخُرُوجِ.

(٦) رواه البخاريُّ: (٤٣٥) ومسلم (١١٢٤).

ولهذا كانتْ زيارةُ قُبُورِ المُسْلمينَ علىٰ وَجْهَيْنِ: زيارةٍ شَرْعِيَّةٍ، وزيارةٍ بِدْعيَّةٍ.

فالزِّيارةُ الشَّرعيَّةُ: أنْ يَكُونَ مَقصُودُ الزَّائِرِ الدُّعَاءَ للميِّتِ، كما يَقْصِدُ بالصَّلاةِ علىٰ جَنَازَتِهِ الدُّعَاءَ لَهُ.

وأمَّا الزِّيارةُ البِدْعيَّةُ: فَهِيَ الَّتي يُقْصَدُ بِهَا أنْ يَطْلُبَ مِنَ المَيِّتِ الحوائجَ، أَوْ يَطْلُبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ والشَّفاعةَ، أَوْ يَقْصِدَ الدُّعَاءَ عِنْدَ قَبْرِهِ لظنِّ القَاصِدِ أنَّ ذلك أَجْوَبُ للدُّعَاءِ، فالزِّيارةُ علىٰ هذِهِ الوُجُوهِ كُلُّها مُبْتَدعةٌ، لَمْ يَشْرَعْهَا النَّبِيُّ ﷺ، ولا فَعَلَها الصَّحابةُ، لا عِنْدَ قَبْرِ النَّبيِّ ﷺ، ولا عِنْدَ غَيْرِهِ، وهي مِنْ جِنْسِ الشِّرْكِ، وأسبابِ الشِّرْكِ.

ولَوْ قَصَدَ الصَّلاةَ عِنْدَ قُبُورِ الأنبياءِ والصَّالِحِينَ مِنْ غَيْرِ أنْ يَقْصِدَ دُعَاءَهُمْ، والدُّعَاءَ عِنْدَهُمْ، مثل: أنْ يَتَّخِذَ قُبُورَهُمْ مَسَاجِدَ - لَكَانَ ذلك مُحرَّمًا مَنْهِيًّا عَنْهُ، ولكان صاحِبُهُ مُتَعَرِّضًا لغَضَبِ اللهِ ولَعْنَتِهِ، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ علىٰ قَوْمٍ اتَّخذوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ»(١). وقال: «إنَّ مَنْ كان قَبْلَكُمْ كانوا يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ، ألا فلا تَتَّخذوا القُبُورَ مَسَاجِدَ؛ فإنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذلك»(٢). فإذا كان هذا مُحرَّمًا، وهُوَ سَبَبٌ لسَخَطِ الرَّبِّ ولَعْنَتِهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَقْصِدُ دُعَاءَ المَيِّتِ، والدُّعَاءَ عِنْدَهُ وَبِهِ، واعتقد أنَّ ذلك مِنْ أسبابِ إجابةِ الدَّعواتِ، ونَيْلِ الطَّلَباتِ، وقَضَاءِ الحاجاتِ؟!، كُلُّ المساجدِ الَّتي بُنِيَتْ علىٰ القُبُورِ، أَوْ دُفِنَ المَوْتَىٰ فِيهَا - لا يَجُوزُ اتِّخاذُهَا مَكَانًا للصَّلاةِ.

---

(١) (صحيح) رواه مالكٌ في «الموطَّأ» (٤١٩) عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ مُرْسلًا، وصحَّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (٧٥٠)، ووصله أحمدُ في «المسند» (٧٥٦١) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ.

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

وهذا كان أَوَّلَ أَسْبَابِ الشِّرْكِ فِي قَوْمِ نُوحٍ، وعبادةِ الأَوْثَانِ فِي النَّاسِ»(١).

وقال العبَّادُ - حفظه اللهُ -:

«نأتي إلىٰ مَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ ونَقُولُ: هَلِ الرَّسُولُ ﷺ دُفِنَ فِي الْمَسْجِدِ؟ وَهَلْ مسجدُ الرَّسُولِ ﷺ بُنِيَ علىٰ قَبْرٍ؟

كان هُنَاكَ قُبُورُ المُشْرِكِينَ، ولكنَّها نُبِشَتْ وأُخْرِجَتْ، وكان لَهُ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ - بُيُوتٌ مُمَيَّزَةٌ فِي شَرْقِ المَسْجِدِ، والرَّسُولُ ﷺ لمَّا تُوُفِّيَ، تَشَاوَرَ الصَّحَابَةُ - رضي الله عَنْهُمْ وأَرْضَاهُمْ - أَيْنَ يَدْفِنُونَهُ ﷺ، فَرَوَىٰ بَعْضُهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - قال: «إنَّ الأنبياءَ يُدْفَنُونَ حَيْثُ يَمُوتُونَ» أي: المكانُ الَّذي يَمُوتُ فِيهِ النَّبِيُّ يُدْفَنُ فيه، ولمَّا كان النَّبِيُّ ﷺ مات في حُجْرَةِ عائشةَ؛ دُفِنَ في حُجْرَةِ عائشةَ، وكانت تلك الحُجْرَةُ خارِجَ المَسْجِدِ، وكانتْ تَحِيضُ أُمُّ المُؤْمِنِينَ عائشةُ فيها، ويُجَامِعُ أَهْلَهُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - فيها، فَهِيَ لَيْسَتْ مِنَ المَسْجِدِ، بَلِ المَسْجِدُ مُسْتَقِلٌّ عَنِ البُيُوتِ، والبُيُوتُ مستقلَّةٌ عَنِ المَسْجِدِ، فليس هذا المسجدُ مَبْنِيًّا علىٰ قَبْرٍ، ولم يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ دُفِنَ فِي المَسْجِدِ، وإنَّما دُفِنَ فِي بَيْتِهِ، وبَقِيَ الأَمْرُ علىٰ هذا الوَضْعِ، وبَقِيَتِ الحُجُراتُ خارِجَ المَسْجِدِ فِي عَهْدِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ﭫ، وفي عَهْدِ مُعاويةَ بْنِ أبي سُفْيَانَ ﭬ، وكذلك بَقِيَتْ فَتْرَةً مِنْ خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ، ثُمَّ إِنَّهُ وُسِّعَ المَسْجِدُ؛ وأُدْخِلَ القَبْرُ فِي الْمَسْجِدِ.

فلا يجوزُ أنْ تُتْرَكَ الأحاديثُ المحكمةُ، الَّتي لا تَقْبَلُ النَّسْخَ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، بسببِ عَمَلٍ حَصَلَ منْ بني أُميَّةَ بَعْدَ زَمَنِ الصَّحابةِ - رضي اللهُ عنهم وأرضاهم -،

---

(١) «قاعدةٌ جليلةٌ» (٣٠) باختصارٍ.

حيثُ قاموا بإدخالِ القَبْرِ في المسجد، ولا يَجُوزُ أنْ يُتَّخَذَ هذا العملُ حُجَّةً في مقابلِ الأحاديثِ الصَّحيحةِ، وإنَّما المُعَوَّلُ عليه الأحاديثُ المحكمةُ، وأمَّا هذا المسجدُ فالصَّلاةُ فِيهِ بألفِ صَلَاةٍ، سَواءٌ دخل القَبْرُ فيه أو لم يدخُلْ»(١).

---

(١) «شرح سنن أبي دَاوُدَ»

المؤلِّفُ: عَبْدُ المُحْسِنِ بْنُ حَمَدِ بْنِ عَبْدِ المُحْسِنِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمَدٍ العبَّادُ البدرُ.

مصدر الكتاب: دروس صوتيَّةٌ، قام بتفريغها موقعُ الشَّبكةِ الإسلاميَّةِ.

[الكتاب مرقم آليًا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - ٥٩٨ درسًا].

الحديثُ العاشِرُ

بَعضُ الأمُورِ المُنافيةُ للتّوحيدِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ»(١).

الشَّرْحُ:

سَبَبُ ذِكْرِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ لهذا الحديثِ: أنَّهُ رَأَىٰ علىٰ امرأتِهِ زَيْنَبَ ﷺ خَيطًا في عُنُقِهَا، وقال: لَآلُ عَبْدِ اللهِ - يا آلَ عَبْدِ اللهِ - أغْنِيَاءُ عَنِ الشِّرْكِ. قالتْ: إنَّ عَيْني كانتْ تَطْرُفُ، فأذهبُ إلىٰ فُلانٍ اليَهُوديِّ، فيرقاها فتَكُفُّ. قال ﷺ: إنَّما ذلك شَيطَانٌ يَنْخَسُها بكَفِّهِ، فإذا رُقِيَ كَفَّ، ثُمَّ قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إنَّ الرُّقَىٰ، والتَّمَائِمَ، والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». فَهُوَ لَمَّا قَطَعَ هذا الخَيْطَ، وأنكر علىٰ زَوْجَتِهِ هذا الفِعْلَ؛ ذكر الدليلَ مِنْ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ. «إنَّ الرُّقَىٰ، والتَّمائِمَ، والتِّوَلَةَ شِرْكٌ».

فهذا الحديثُ تضمَّنَ تأكِيدًا؛ لأنَّ دُخُولَ «إنَّ» علىٰ الجُمْلَةِ الخَبَرِيَّةِ بَعْدَها يُفِيدُ تأكيدَ ما تضمَّنَتْهُ.

وقولُهُ هنا: «الرُّقَىٰ» لَمَّا دخلتْ عليها الألفُ واللَّامُ أفادتِ العُمُومَ، فهذا الحديثُ أفاد بعُمُومِهِ أنَّ كُلَّ الرُّقَىٰ مِنَ الشِّرْكِ، وأنَّ كُلَّ التَّمائمِ مِنَ الشِّرْكِ، وأنَّ كُلَّ التِّوَلَةِ مِنَ الشِّرْكِ، فتكونُ هذِهِ الأنواعُ كُلُّها مِنَ الشِّرْكِ، وهذا العُمُومُ خَصَّ الدَّلِيلُ مِنْهُ الرُّقَىٰ

---

(١) (حسن) أخرجه أبو داوُدَ (٣٨٨٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (١٦٣٢)، وحسَّنه شيخُنا الوادعيُّ في «الصحيح المسند» (٨٣٠).

وَحْدَها، وَهُوَ قَوْلُهُ: «لا بَأْسَ بالرُّقَىٰ ما لَمْ تَكُنْ شِرْكًا»، وبأنَّ النَّبِيَّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - رَقَىٰ ورُقِيَ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، فدلَّ الدليلُ - إذًا - عَلىٰ أنَّ العُمُومَ هَاهُنَا مَخْصُوصٌ، فَلَيْسَ كُلُّ أنواعِ الرُّقْيةِ شِرك، بَلْ بَعْضُ أنْواعِ الرُّقْيةِ، وَهِيَ: الَّتي اشتملتْ علىٰ شِرْكٍ، فالعُمُومُ هُنَا مَخْصُوصٌ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ، وَقَدْ جاءَ الحديثُ بلفظ: «لا بَأْسَ بالرُّقَىٰ ما لَمْ تَكُنْ شِرْكًا»، وفي لفظٍ آخَرَ قال: «لا بَأْسَ بالرُّقَىٰ ما لَمْ يَكُنْ شِرْكٌ».

وقال السُّيوطيُّ: قَدْ أَجْمعَ العُلَماءُ علىٰ جَوازِ الرُّقَىٰ عِنْدَ اجتماعِ ثَلاثِ شُرُوطٍ:

أَنْ تَكُونَ بكلامِ اللهِ، أَوْ بأسمَائِهِ، وَصِفاتِهِ.

وباللِّسانِ العربيِّ: ما يُعْرَفُ مَعْنَاهُ.

وأنْ يعتقدَ أنَّ الرُّقْيَةَ لا تُؤَثِّرُ بذاتِها، بَلْ بتقديرِ اللهِ - تعالىٰ -.

أمَّا التَّمائِمُ فَلَمْ يَخُصَّ الدليلُ بالجوازِ مِنْها نوعًا دُونَ نَوْعٍ؛ فتكونُ التَّمائمُ بكُلِّ أنواعِها شِرْكًا؛ لعَدَمِ وُرُودِ ما يُخَصِّصُ بَعْضَها، إذْ لَمْ يَسْتَثْنِ الشَّارِعُ منها شيئًا، والأَصْلُ بقاءُ العامِّ علىٰ عُمُومِهِ، والتَّخصيصُ يَكُونُ بالشَّرْعِ، ولَمْ يَرِدْ هنا، فيبقَىٰ علىٰ الأَصْلِ.

قَوْلُهُ: «التِّوَلَةَ»: شَيْءٌ يُعَلِّقونَهُ علىٰ الزَّوجِ؛ يَزْعُمُونَ أنَّهُ يُحَبِّبُ الزَّوْجَةَ إلىٰ زَوْجِهَا، والزَّوْجَ إلىٰ امرأتِهِ، وهذا شِرْكٌ؛ لأنَّهُ لَيْسَ بسَبَبٍ شَرْعيٍّ ولا قَدَرِيٍّ للمحبِّ[1].

---

(١) انظر «الترتيبُ الفَرِيدُ مِنْ شُرُوحاتِ كتابِ التَّوحيدِ» رَتَّبه وأعدَّه أبو توحيد لقمان حسن أمين (١٢/ ٨).

الحديث الحادي عشر

من الشرك التبرك بالقبور، والأحجار، والأشجار

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، مَرَّ بِشَجَرَةٍ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، يُعَلِّقُ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ، كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ!، هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١).

الشَّرْحُ:

أبو واقِدٍ كان مِنَ الَّذين أَسْلَمُوا في هذا العام؛ ولهذا قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَىٰ حُنَيْنٍ، وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ» يَعْني: أَنَّ إسلامَهُمْ كان جَدِيدًا مُتأخِّرًا، وَهُوَ يُرِيدُ بذلك بيانَ العُذْرِ ممَّا وقع مِنْهُمْ، أَنَّهُمْ كانوا جُهَّالًا، لم يتفقَّهوا، كما كان الصَّحابةُ الَّذين مَعَ الرَّسُولِ ﷺ فُقَهاءَ، عَرَفُوا العقيدةَ ودَرَسُوها، لكنْ هؤلاءِ أَسْلَمُوا قَرِيبًا، وَلَمْ يتمكَّنُوا مِنَ التَّفقُّهِ في العقيدةِ، وكانوا آلِفِينَ لأشياءَ مِنْ دِينِ الجاهليَّةِ، لم يتخلَّصوا مِنْهَا بَعْدُ. قال العُلَماءُ: فهذا فيهِ دليلٌ علىٰ أنَّ الإنسانَ إذا عاش في بيئةٍ فاسدةٍ، ثُمَّ انتقل منها؛ أَنَّهُ قَدْ يَبْقَىٰ في نَفْسِهِ مِنْهَا شَيْءٌ، فهذا كان في بيئةٍ شِرْكيَّةٍ، وأَسْلَمَ قَرِيبًا.

وهذا دليلٌ علىٰ آفةِ الجَهْلِ، وأنَّ الإنسانَ قَدْ يَقَعُ في الشِّرْكِ بِسَبَبِ الجَهْلِ.

وَفِيهِ: الحَثُّ علىٰ تعلُّمِ العقيدةِ ومَعْرِفَتِهَا، والتَّبَصُّر فيها؛ خَشْيَةَ أَنْ يَقَعَ الإنسانُ في

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٥/ ٢١٨) (٢٢٢٤٢)، والتِّرمِذيُّ (٢١٨٠)، والنَّسائيُّ في «الكُبرىٰ» (١١١٢١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٦٠١).

مِثْلِ ما وَقَعَ فِيهِ لهؤلاءِ، ففي هذا دليلٌ علىٰ وُجُوبِ تعلُّمِ العقيدةِ الصَّحيحةِ، ووجوبِ تَعَلُّمِ ما يُضَادُّهَا مِنَ الشِّرْكِ والبِدَعِ والخُرَافاتِ؛ حتَّىٰ يكونَ الإنسانُ علىٰ حَذَرٍ مِنْهَا، وما أَوْقَعَ اليَوْمَ عُبَّادَ الأضرحَةِ - أو كثيرًا مِنْهُمْ - في عبادةِ القُبُورِ إلَّا بسببِ الجَهْلِ، ويَظُنُّونَ أنَّ هذه مِنَ الإسلامِ، فهذِهِ مُصيبةٌ عَظِيمةٌ.

وقَوْلُهُ: «وللمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا» العُكُوفُ هُوَ: البَقَاءُ في المَكَانِ، يُقَالُ: اعْتَكَفَ في المكانِ: إذا أطَالَ الجُلُوسَ فِيهِ، واعْتَكَفَ في المَسْجِدِ يَعْني: جَلَسَ في المسجدِ للعِبَادةِ.

«ويَنُوطُون بها أَسْلِحَتَهُمْ» النَّوْطُ هُوَ: التَّعليقُ، وغَرَضُهُمْ مِنْ هذا العُكُوفِ والنَّوْطِ التَّبَرُّكُ بهذِهِ الشَّجَرَةِ.

«فقلنا: يا رسولَ اللهِ، اجعل لنا ذاتَ أَنْوَاطٍ، كما لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ» أَعْجَبَهُمْ عَمَلُ المُشْرِكِينَ، فظنُّوا أنَّ هذا عَمَلٌ سائغٌ، وَهُمْ يَحْرِصُونَ علىٰ تَحْصِيلِ البَرَكةِ؛ فطلبوا مِنَ النَّبيِّ ﷺ أنْ يَجْعَلَ لَهُمْ شجرةً يَعْكُفُون عِنْدَهَا، ويَنُوطُون بها أَسْلِحَتَهُمْ طَلَبًا للبركةِ، ولكنِ انظروا إلىٰ أَدَبِ الصَّحابةِ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ حَيْثُ لَمْ يقدموا إلىٰ هذا الأمْرِ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، بَلْ رَجَعُوا إلىٰ الرَّسُولِ ﷺ، فالمُسْلِمُ إذا أَعْجَبَهُ شَيْءٌ، ويظنُّ أنَّهُ خَيْرٌ فلا يَسْتَعْجِلُ حتَّىٰ يَعْرِضَ هذا علىٰ الكِتَابِ والسُّنَّةِ، ويَسْأَلُ عَنْهُ أَهْلَ العِلْمِ الثِّقَاتِ.

فَقَوْلُهُ: «فقلنا: يا رسولَ اللهِ، اجعلْ لنا ذاتَ أنواطٍ» يَعْني: شَجَرةً نُعَلِّقُ بها أَسْلِحَتَنا للبركةِ، ونجلسُ عِنْدَها للبركةِ. فقال ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ، إنَّها السُّنَنُ» أي: الطُّرُقُ المَسْلُوكةُ، أي: السَّبَبُ أنَّ الَّذي أوقعكم في هذا هُوَ التَّشَبُّهُ بما عليه النَّاسُ، فالتَّشَبُّهُ بالكُفَّارِ في عِبَادَاتِهِمْ وتقالِيدِهِمُ الخاصَّةِ بِهِمْ آفةٌ خَطِيرةٌ «مَنْ تشبَّهَ بقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]،

(١) (صحيح) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) -وصحَّحهُ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٦١٤٩) عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وما أصاب بَعْضَ المسلمين مِنَ الأُمُورِ الشَّنيعةِ، أغْلَبُهُ مِنْ جِهَةِ التَّشَبُّهِ بالكُفَّارِ، أوَّلُ ما حَدَثَ الشِّرْكُ في مكَّةَ هُوَ بسَبَبِ التَّشَبُّهِ بالكُفَّارِ؛ لأنَّهُ لمَّا ذَهَبَ عَمْرُو بْنُ لُحَيٍّ إلىٰ الشَّامِ، ووَجَدَ أَهْلَ الشَّامِ يَعْبُدُونَ الأصنامَ، أعجبه ذلك، وَجَلَبَها إلىٰ الحِجَازِ، وَمِنْ ذلك الوقتِ فَشَا الشِّرْكُ في أرْضِ الحِجَازِ، فَهُوَ أوَّلُ مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبراهيمَ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، فهٰذِهِ هي الآفةُ، هٰذِهِ هِيَ السُّنَنُ الَّتي تعجَّب منها النَّبيُّ ﷺ.

ثُمَّ بيَّنَ ﷺ خطَرَ هٰذِهِ المقالةِ، فقال: «قُلْتُمْ والَّذي نَفْسي بيدِهِ» أقْسَمَ ﷺ، ففي هذا مَشْرُوعيَّةُ القَسَمِ علىٰ الفَتْوَىٰ إذا تحقَّق مِنْ إصابةِ الحَقِّ.

«كما قالتْ بَنُو إسرائيلَ لمُوسَىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾» النَّبيُّ ﷺ بيَّن أنَّ هٰذِهِ عادةٌ قديمةٌ في العَالَمِ، وأنَّها حَصَلَتْ علىٰ عَهْدِ مُوسَىٰ عليه السلام، وذلك أنَّ الله لمَّا نجَّىٰ بَنِي إسرائيلَ مِنْ فِرْعَوْنَ، وأغْرَقَ فِرْعَوْنَ وقَوْمَهُ، ونجَّىٰ مُوسىٰ وقَوْمَهُ، ومَرُّوا في طَرِيقِهِمْ علىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ علىٰ أصنامٍ لَهُمْ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ طلبوا مِنْ مُوسَىٰ أنَّه يجعلُ لَهُمْ صَنَمًا يَعْبُدُونَهُ كهؤلاءِ الَّذينَ يَعْبُدُونَ الصَّنَمَ، قال مُوسَىٰ عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾ السَّبَبُ الَّذي أوقعكم في هذا هُوَ الجَهْلُ بالتَّوحيدِ، وهذا - كما ذكرنا - يُوجِبُ علىٰ المُسْلِمينَ أنْ يتعلَّموا العَقِيدةَ، ولا يَكْتَفُوا بقَوْلِهِمْ: نَحْنُ مُسْلِمُونَ، نَحْنُ في بلادِ إسلامٍ، نَحْنُ في بيئةٍ إسلاميَّةٍ، كما يقولُهُ الجُهَّالُ، أوِ الَّذين يُثَبِّطون عَنْ تَعَلُّمِ العقيدةِ.

فالحاصلُ: أنَّ التَّبرُّكَ بالأشجارِ والأحْجَارِ هُوَ مِنْ سُنَّةِ المُشْرِكينَ، وَمِنْ سُنَّةِ الجاهليَّةِ، ومَنْ فَعَلَهُ فَهُوَ مُتَشَبِّهٌ بالكُفَّارِ، وهو كافرٌ مِثْلُهُمْ، لا فَرْقَ بَيْنَ مَنْ يَعْبُدُ القَبْرَ، ومَنْ يَعْبُدُ اللَّاتَ والعُزَّىٰ، أوِ الَّذي يَطْلُبُ البركةَ مِنَ الشَّجرةِ، والَّذي يَطْلُبُها مِنَ الصَّنَمِ، لا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.

ففي هذا بُطْلَانُ التَبرُّكِ بالأشجارِ والأحجارِ، وأنَّهُ شِرْكٌ، لأنَّ مُوسَىٰ عليه السلام قال: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾، فَدَلَّ علىٰ أنَّ مَنْ تبرَّك بشَجَرٍ أو حَجَرٍ، فَقَدِ اتَّخَذَهُ إلهًا، وهذا هُوَ الشِّرْكُ، واختلافُ اللَّفظِ لا يُؤَثِّرُ مَعَ اتِّفَاقِ المعنىٰ، هؤلاءِ قالوا: «اجعلْ لنا ذاتَ أَنْوَاطٍ، كما لَهُمْ ذاتَ أنْوَاطٍ»، وبَنُو إسرائيلَ قالوا: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، والرَّسُولُ ﷺ جَعَلَ هذا مِثْلَ هذا، وإنِ اختلف اللَّفظُ.

وفيه - أيضًا -: القاعدةُ العظيمةُ، وهي: خُطُورةُ التَّشَبُّهِ بالكُفَّارِ والمُشْرِكينَ؛ لأنَّها تُؤَدِّي إلىٰ الشِّرْكِ، ولهذا قال ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ». وهذا فِيهِ - أيضًا - عَلَمٌ مِنْ أعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبر أنَّهُ في المُسْتَقْبَلِ سَيَكُونُ في المُسلمين مَنْ يُقَلِّدُ الكُفَّارَ، وهذا وَقَعَ كما أخبر ﷺ، فتقليدُ الكُفَّارِ الآنَ علىٰ قَدَمٍ وساقٍ، إلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ ﷻ، وهذا خَبَرٌ مَعْنَاهُ التَّحذيرُ، ولَيْسَ مُجَرَّدَ خَبَرٍ.

فهذا الحديثُ فِيهِ التَّحذيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بالمُشركين والكُفَّارِ في أفْعَالِهِمْ، وعاداتِهِمُ الخاصَّةِ، وتقاليدِهِمْ وطُقُوسِهِمْ[1].

---

(١) «إعانةُ المستفيدِ بشرحِ كتابِ التَّوحيدِ» صالح الفوزان (١/ ٥٩ - ٣) باختصارٍ.

الحديث الثاني عشر

الغلوُّ مِنْ أعظمِ أسبابِ الشِّرك

عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ عَلَى الْمِنبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»[١].

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «لا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ» الإِطْراءُ: مُجَاوزَةُ الحَدِّ فِي المَدْحِ، والكَذِبُ عَلَيْهِ. قاله أبو السَّعاداتِ. وقال غَيْرُهُ: أَيْ: لا تَمْدَحُوني بالباطِلِ، ولا تُجَاوِزُوا الحدَّ في مَدْحي.

وَقَدْ ظَنَّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ الكافَ فِي قَوْلِهِ: «كما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ» أَنَّها كافُ الْمِثْلِيَّةِ يَعْنِي: لا تُطْرُونِي بِمِثْلِ ما أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ.

ويقولُ هذا الظَّانُّ: إِنَّ النَّصارَى أَطْرَتِ ابْنَ مَرْيَمَ فِي شَيْءٍ واحِدٍ، وَهُوَ أَنْ قالوا: هُوَ ابْنُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكونُ النَّهْيُ عَنْ أَنْ تَجْعَلَ لَهُ ﷺ رُتْبَةَ البُنُوَّةِ فَقَطْ؛ فإذا كان كذلك فما عَدَاهُ جائِزٌ، وهذا هُوَ فَهْمُ الخُرافِيِّينَ لهذا النَّهْيِ، كما قال قائِلُهُمُ البُوصِيريُّ في هذا المقامِ:

دَعْ مـا ادَّعَتْـهُ النَّـصارَى في نَبِـيِّهِم ... واحْكُمْ بما شِئْتَ مـدحًا فِيهِ واحْتَكِمِ

أو كما قال، يَعْني: لا تَقُلْ: إِنَّهُ وَلَدُ اللهِ، أَوْ أَنَّهُ ابْنُ اللهِ، فهذا هُوَ القَدْرُ المَنْهِيُّ عَنْهُ فَقَطْ، ولك أَنْ تَقُولَ فِيهِ بَعْدَ ذلك ما شِئْتَ غَيْرَ مَلُومٍ، وغَيْرَ مُثَرَّبٍ[٢] عَلَيْكَ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٤٥).

(٢) التَّثريب: اللَّومُ والتَّوبيخُ.

الوَجْهُ الثَّاني - وَهُوَ الفَهْمُ الصَّحيحُ، وَهُوَ الَّذي يَدُلُّ عليه السِّياقُ -: أنَّ الكافَ هُنا هِيَ كافُ القِياسِ، والمَعْنَىٰ: لا تُطْرُوني إطراءً كما أطْرَتِ النَّصارَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، وكافُ القِياسِ هِيَ كافُ التَّمْثِيلِ النَّاقصِ، وحَقِيقَتُها: أنْ يَكُونَ هُناكَ شَبَهٌ بَيْنَ ما بَعْدَهَا وما قَبْلَها في أصْلِ الفِعْلِ.

فنَهَىٰ ﷺ في قَوْلِهِ: «**لا تُطْرُوني كما أطْرَتْ**» عَنْ أنْ يُطْرَىٰ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - كما حَصَلَ أنَّ النَّصارىٰ أطْرَتِ ابْنَ مَرْيَمَ، فَهُوَ تَمْثِيلٌ للحَدَثِ بالحَدَثِ، لا تمثيلٌ أو نَهْيٌ عَنْ نَوْعِ الإطْرَاءِ، فمعنىٰ قَوْلِهِ: «**لا تُطْرُوني كما أطْرَتْ**» فَنَهَىٰ عَنْ إطْراءٍ لَهُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - لِأَجْلِ أنَّ النَّصارَىٰ أطْرَتِ ابْنَ مَرْيَمَ، فقادهم ذلك إلىٰ الكُفْرِ والشِّرْكِ باللهِ، وادِّعَاءِ أنَّهُ وَلَدٌ للهِ ﷻ؛ ولهذا قال: «**إنَّما أنا عَبْدٌ، فقولوا: عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ**». فالكافُ هُنَا لَيْسَتْ كافَ التَّمثيلِ الكامِلِ، بأنْ يَكُونَ ما بَعْدَها مُماثلًا لما قَبْلَها مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، وإنَّما هي كافُ التَّمثيلِ الَّذي يَكُونُ ما بَعْدَهُ مُشْتركًا مَعَ ما قَبْلَهُ في المَعْنَىٰ، وهي القِياسيَّةُ الَّتي تَجْمَعُها العِلَّةُ؛ ولهذا يقولُ الفُقَهاءُ - كما هو مَعْلُومٌ -: هذا كهذا، فَيَقُولُونَ - مَثَلًا -: نَبِيذُ غَيْرِ التَّمْرِ والعِنَبِ كنَبِيذِ التَّمْرِ والعِنَبِ مُساواةً بَيْنَ هذا وهذا؛ لوُجُودِ أصْلِ المَعْنَىٰ بَيْنَهُما.

وهُنا نَهْيٌ عَنِ الإطْراءِ؛ لأجْلِ وُجُودِ أصْلِ الإطْراءِ في الاشتراكِ بَيْنَ إطراءِ النَّصارىٰ، وما سَبَّبَهُ مِنَ الشِّرْكِ، وإطراءِ ما لَوْ أُطْرِيَ النَّبِيُّ ﷺ، وما سَيُسَبِّبُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

وكثيرٌ مِنْ طوائفِ هذِهِ الأُمَّةِ خالفوا أمرَ النَّبيِّ ﷺ في النَّهْيِ عَنْ إطرائِهِ، حتَّىٰ جاوزوا الحدَّ في ذلك، فزَعَمَ زاعِمُهُمْ: أنَّ لَهُ مِنَ المُلْكِ نَصِيبًا، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، مَعَ أنَّهُ ﷺ أرشدَهُمْ إلىٰ ما يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الأَمْرُ بقَوْلِهِ: «**إنَّما أنا عَبْدٌ، فقولوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»، وهذا هُوَ الكَمالُ في حَقِّهِ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، أنْ يَكُونَ عَبْدًا رَسُولًا، فهذا أشْرَفُ مقاماتِهِ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -[1].

---

(١) «التَّرتيبُ الفَرِيدُ مِنْ شُرُوحاتِ كتابِ التَّوحيدِ»، رتَّبه وأعدَّهُ أبو توحيد لقمان حسن أمين (٢٣/ ٦١).

الحديثُ الثَّالثَ عَشَرَ

وُجُوبُ تعظيمِ اللهِ حَقَّ تعظيمِه

عَنْ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَىٰ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَىٰ إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧][(١)].

الشَّرْحُ:

هذا الحديثُ يَدُلُّنا علىٰ أُمورٍ:

أوَّلًا: يدلُّنا علىٰ عَظَمةِ اللهِ وكِبْرِيائِهِ، وأنَّهُ أكبرُ وأعظمُ مِنْ كُلِّ شيْءٍ، وأنَّ السمواتِ علىٰ سَعَتِهَا وَعِظَمِها تُصْبِحُ بالنِّسْبةِ إلىٰ اللهِ حَقِيرةً صغيرةً جِدًّا، كما قال عَبْدُ اللهِ بْنُ عبَّاسٍ: إنَّ اللهَ يَقْبِضُ السَّمواتِ كُلَّها، فتكونُ في كَفِّهِ تعالى كالخَرْدَلَةِ.

لا يَجُوزُ للإنسانِ أنْ يتصوَّرَ أنَّ هُناكَ شَيْئًا أكبرَ أو أعْظَمَ مِنَ اللهِ، وإذا كان بهذِهِ العَظَمةِ، فكَيْفَ يَسُوغُ للإنسانِ أنْ يقُولَ: إنَّهُ مَعَ خَلْقِهِ بذاتِهِ حالٌّ مَعَهُمْ؟!، وكيف يَسُوغُ لإنسانٍ أنْ يقُولَ: إنَّ السَّمواتِ تكُونُ فَوْقَهُ إذا نَزَلَ، كما قال الرسولُ ﷺ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ: «إذا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يَنْزِلُ اللهُ إلىٰ السَّماءِ الدُّنْيا، فَيَبْسُطُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨١١)، ومسلم (٧٢٨٦).

يَدَهُ، فيقولُ: «هَلْ مِنْ تائِبٍ فَيُتابَ عَلَيْهِ؟، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرَ لَهُ؟، هَلْ مِنْ سائِلٍ فَيُعْطَى؟، إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الفَجْرُ»[1]. ما يَجُوزُ أَنْ يَتَصَوَّرَ مُتَصَوِّرٌ أَنَّ هذا النُّزولَ الإلهيَّ في آخِرِ اللَّيلِ إلى السَّماءِ الدُّنيا تكُونُ فِيهِ السَّماءُ الثَّانيةُ، والثَّالثةُ، والرابعةُ، والخامسةُ، والسَّادسةُ، والسَّابعةُ، والعَرْشُ، والكُرْسيُّ، والبَحْرُ - فَوْقَهُ، تعالى اللهُ وتقدَّسَ، بَلْ يَنْزِلُ وَهُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَهُوَ عالٍ على كُلِّ شَيْءٍ.

ثانيًا: قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢] هذا يَوْمَ القيامةِ، وَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠] هذا - أيضًا - يَوْمَ القيامةِ حِينَ يُحْشَرُ النَّاسُ على وَجْهِ هذِهِ الأرضِ بَعْدَما يَمُدُّها، ويَزِيدُ فيها، ويُذْهِبُ جِبالَها وَوِهَادَها[2]؛ فتصيرُ قاعًا صَفْصَفًا[3]، لا تَرَى فِيها عِوَجًا ولا أَمْتًا[4]؛ حتَّى تَتَّسِعَ للخَلْقِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، مُنْذُ خُلِقُوا إلى آخِرِ مَوْلُودٍ مِنْهُمْ، فَيَجْمَعُهُمْ عَلَيْها راغِمِينَ ذَلِيلِينَ حَقِيرِينَ، تَرَى الَّذِينَ عَصَوُا اللهَ كالذَّرِّ تَطَؤُهُمُ الأَقْدامُ، فإذا طالَ بِهِمُ الوُقُوفُ، استشفعوا بالأنبياءِ أَنْ يَأْتِيَ رَبُّهُمْ ﷻ لِيقضيَ بَيْنَهُمْ؛ فيأتي ﷻ وَهُوَ على عَرْشِهِ فَوْقَ سماواته، بَلْ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ؛ لأَنَّهُ أكبرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأعظمُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ.

ثالثًا: فيه أَنَّ للهِ يَدَيْنِ، يَقْبِضُ بهما إذا شاء أَنْ يَقْبِضَ، فيقبضُ السَّمواتِ والأرضَ، وإحداهُما يَمِينٌ، كما قال ﷻ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، وفي صحيح

(١) رواه البخاريُّ (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) عَنْ أبي هُرَيْرَةَ.

(٢) الوِهادُ: جَمْعُ وَهْدَةٍ، وهي ما انخفض مِنَ الأرضِ.

(٣) الصَّفْصَفُ: المُسْتَوي مِنَ الأرضِ.

(٤) الأَمْتُ: المكانُ المُرْتَفِعُ، أي: لا تَرَى فيها انخفاضًا ولا ارتفاعًا.

مسلم: «يَطْوِي السَّمَوَاتِ بِيَمِينِهِ، والأَرْضَ بِشِمَالِهِ»[1]، وهذا قَوْلُ رسولِ اللهِ ﷺ.

رابعًا: فِي هذا النَّصِّ التَّصريحُ بأنَّ لِيَدَيْهِ أَصَابعَ ﷻ، يُمْسِكُ بها ما يَشَاءُ، ويَضَعُ عَلَيْهَا ما يَشَاءُ، وفيها - أيضًا - إثباتُ هَزِّهِ الأشياءَ هَزًّا قَوِيًّا. وَقَوْلُهُ: «أنا المَلِكُ» يَعْنِي: الْمَلِكَ الحَقَّ الَّذِي لَيْسَ لأحدٍ مَعَهُ مُلْكٌ، تعالىٰ وتقدَّس، وهذا مِنَ الأُمُورِ الَّتِي يَجِبُ الإيمانُ بها، ويَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ الإنسانُ عَظَمَةَ اللهِ ﷻ، وأَنْ نَصِفَهُ بما وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، ووَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ علىٰ حَدِّ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ تعالىٰ وتقدَّس، فكُلُّ ما وصف اللهُ ﷻ بِهِ نَفْسَهُ، وجاء عَنْ رَسُولِهِ ﷺ يَجِبُ أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ علىٰ ظاهِرِهِ، خِلَافًا لِمَا يَقُولُهُ الأشاعرةُ وأَهْلُ الكَلَامِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: هٰذِهِ ظَوَاهِرُ لا يَجُوزُ اعتقادُها؛ لأنَّا لَوِ اعتقدْنا ظَاهِرَها لدلَّتْ علىٰ التَّشْبِيهِ للهِ - تعالىٰ وتقدَّس -، ونَحْنُ نَقُولُ: هذا باطِلٌ، وظَنُّ سَوْءٍ باللهِ وبِرَسُولِهِ ﷺ.

أمَّا كَوْنُهُ ظَنَّ سَوْءٍ باللهِ؛ لأنَّ الَّذِي دَعَاهُمْ إلىٰ هذا القَوْلِ هُوَ تَصَوُّرُهُمْ أَنَّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ مِثْلُ صِفَاتِهِمُ الَّتِي يَعْقِلُونَها مِنْ أَنْفُسِهِمْ، تعالىٰ اللهُ وتقدَّس؛ ولهذا إِذَا سَمِعُوا مِثْلَ قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «إنَّ اللهَ يَنْزِلُ إلىٰ السَّماءِ الدُّنْيا»، قالوا: كَيْفَ يَنْزِلُ إلىٰ السَّماءِ الدُّنْيا آخِرَ اللَّيلِ، وآخِرُ اللَّيلِ يَخْتَلِفُ باخْتِلَافِ المَنَاطِقِ والأَقَالِيمِ؟!، فَلَوْ قُلْنَا بهذا، لكانَ النُّزُولُ دائمًا مُتواصلًا طوالَ أربعٍ وعِشْرِينَ ساعةً!، ونَحْنُ نَقُولُ هذا القَوْلَ الَّذِي تَقُولُونَهُ، والتَّقْدِيرَ الَّذِي تُقَدِّرُونَهُ؛ لَوْ كان النُّزُولُ مِثْلَ النُّزولِ المَعْهُودِ لَكُمْ، نُزُولِ جِسْمٍ إلىٰ جِسْمٍ، ولكنْ هذا نُزُولُ اللهِ، واللهُ ﷻ يَسْتَمِعُ لخَلْقِهِ كُلِّهِمْ في آنٍ واحِدٍ، وَهُمْ يُنَاجُونَهُ ويَعْبُدُونَهُ، كُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: يا رَبِّ، يا رَبِّ، وَهُوَ يسمعُ كُلَّ واحِدٍ، لا يَشْغَلُهُ سَمَاعُ هذا عَنْ سَمَاعِ الآخَرِ.

---

(١) رَوَاهُ مسلمٌ (٢٧٨٨).

وكذلك يَرْزُقُهُمْ كُلَّهُمْ في آنٍ واحدٍ، ويعلمُ ما في نُفُوسِهِمْ في آنٍ واحدٍ، وكذلك إذا صار يَوْمُ القيامةِ يُحَاسِبُهُمْ كُلَّهُمْ في ساعةٍ واحدةٍ، وكُلُّ واحدٍ يُكَلِّمُهُ رَبُّهُ خاليًا بِهِ، يَرَىٰ أَنَّهُ ما يُكَلِّمُ غَيْرَهُ، وَهُوَ يُكَلِّمُ الخَلْقَ كُلَّهُمْ، فالرَّبُّ ﷻ لا يَجُوزُ أَنْ نَقِيسَهُ بالمَخْلُوقِينَ في أفعالِهِ وأَوْصَافِهِ، فالَّذي يَقُولُ مِثْلَ هذا القَوْلِ؛ ما قَدَرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، تعالىٰ اللهُ وتقدَّسَ.

فالمقصودُ: أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنا أَنْ نَعْتَقِدَ ما قَالَهُ اللهُ في نَفْسِهِ، وما قَالَهُ الرَّسُولُ ﷺ عَنْ رَبِّهِ، علىٰ ما يَلِيقُ باللهِ وعَظَمَتِهِ وكِبْرِيائِهِ؛ ولهذا يقولُ اللهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١] فأثبتَ لنَفْسِهِ السَّمْعَ والبَصَرَ الَّذي هُوَ مَوْجُودٌ في المَخْلُوقاتِ، ولكنَّ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ لَيْسَ كسَمْعِ المَخْلُوقِ وبَصَرِهِ، وكذلك سائرُ أوصافِهِ ﷻ، فهذا ظَنُّ السَّوْءِ باللهِ.

أَمَّا ظَنُّهُمُ السَّوءَ بالرَّسُولِ ﷺ فواضحٌ، فعلىٰ قَوْلِهِمْ فإنَّ الرَّسُولَ ﷺ بَلَّغَ أُمَّتَهُ ما ظاهِرُهُ الكُفْرُ، وتَرَكَهُمْ بدُونِ أَنْ يُوَضِّحَ لَهُمْ، تعالىٰ اللهُ وتقدَّس أَنْ يُقِرَّ نبيَّهُ علىٰ هذا، فالرسولُ ﷺ وَضَّح للأُمَّةِ غايةَ الإيضاحِ، ولَمْ يَأْتِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ لمَّا ذَكَرَ لنا مِثْلَ هذِهِ الأحاديثِ، قال: لا تعتقدُوا ظاهِرَها أبدًا، بَلْ جاء ما يدلُّ علىٰ أَنَّهُ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَعْتَقِدَ ظاهِرَهَا علىٰ ما يَلِيقُ باللهِ، ففي «السُّنَنِ» عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قال: «**إِنَّ اللهَ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ**[1] **قَنِطِينَ**[2]**، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**» يَعْنِي: إذا تَأَخَّرَ المَطَرُ، وإذا أَجْدَبَتِ الأَرْضُ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقْنَطُ ويَسْتَبْعِدُ الخَيْرَ، يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ في هذِهِ الحالةِ: «**ينظرُ إليكم أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ**». فقال أبو رَزِينٍ العُقَيْلِيُّ: يا

---

(١) أَزِلِينَ: جَمْعُ أَزِلٍ، وهُوَ الواقع في الشِّدَّةِ.

(٢) قَنِطِينَ: جمعُ قَنِطٍ، وَهُوَ اليائسُ مِنَ الفَرَجِ وزوالِ الشِّدَّةِ.

رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ رَبُّنَا؟ قال: نَعَمْ. فقال: إِذًا لا نَعْدَمُ خَيْرًا مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ. وفي روايةٍ: إذًا لا يعدمنا ربُّنا خيرًا إذا ضَحِكَ[١]. فأقرَّهُ النَّبيُّ ﷺ على ذلك.

وفي حديثِ عائشةَ أنَّهُ قال: «أَوَ يَضْحَكُ ربُّنا يا رسولَ اللهِ؟!. قال: «إِي واللهِ». أقسمَ ﷺ، فَيَجِبُ أَنْ نَقْبَلَ ما قالَهُ الرَّسُولُ ﷺ، وأَنْ نُعَظِّمَ ربَّنا ﷻ، فلا يَكُونُ ضَحِكُهُ كَضَحِكِ المَخْلُوقِ، تَعَالَىٰ وتقدَّسَ، ولا تَكُونُ يَدُهُ كَيَدِ المَخْلُوقِ، وهكذا بقيَّةُ أَوْصَافِهِ[٢].

---

(١) (صحيح)، رواه أحمدُ (٤/ ١١، ١٢)، وابنُ ماجَهْ (١٨١)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (٢٨١٠).

(٢) انظر: «شَرْح فتح المجيد» للغنيمانِ، دروس صوتيات قام بتفريغها موقعُ الشَّبَكَةِ الإسلاميَّةِ (٣/ ١٣٦).

الحديث الرابع عشر

الإسلامُ دِينُ الفِطرَةِ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا عَلَىٰ هَذِهِ الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُونَ الإِبِلَ، فَهَلْ تَجِدُونَ فِيهَا جَدْعَاءَ؟، حَتَّىٰ تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَرَأَيْتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟ قَالَ: «اللهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ»(١).

الشَّرْحُ:

قوله: «يُولَدُ على الفِطْرَةِ» الجُمْهُورُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ علىٰ أنَّ المَقْصُودَ بالفِطْرَةِ: الإسلامُ، وأنَّ الكُفْرَ طَارِئٌ؛ لأنَّ الكُفَّارَ هُمُ الَّذين يَسْعَوْنَ في نَقْلِ أبنائِهِم مِنَ الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَهُمُ اللهُ عليها إلىٰ ما يُضادُّها وما يُخالِفُها، وهو غَيْرُ الإسلامِ؛ ولهذا قال: «فأبواه يُهَوِّدانِهِ ويُنَصِّرانِهِ» أيْ: يُعَلِّمانِهِ اليَهُودِيَّةَ والنَّصْرانِيَّةَ، ويَنْقُلانِهِ مِنَ الفِطْرَةِ الَّتي هُوَ عليها إلىٰ دِينِ اليَهُودِ ودينِ النَّصارىٰ.

ومِمَّا يَدُلُّ علىٰ أنَّ المَقْصُودَ بالفِطْرَةِ الإسلامُ قَوْلُهُ ﷺ في الحديثِ الَّذي يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: «خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ»(٢). يَعْني: صَرَفَتْهُم، والشَّياطِينُ مِثْلُ اليَهُودِ والنَّصارىٰ الَّذين يَصْرِفُونَ أولادَهُمْ عَنِ الفِطْرَةِ الَّتي فَطَرَهُمُ اللهُ عليها.

إذًا المقصودُ بالفِطْرَةِ الإسلامُ، وأنَّ النَّاسَ خُلِقُوا لا يَعْرِفُونَ إلَّا الإسلامَ، وأنَّهُمْ

---

(١) رواهُ البخاريُّ (٦٥٩٩) ومسلم (٦٨٥٤).

(٢) رواه مسلمٌ (٢٨٦٥).

لَوْ عاشوا لما صار عِنْدَهُمْ إلَّا هذا، ولكنَّهم إذا حُرِّفوا وصُرِفُوا عَنْ هذا الَّذي فطَرَهُمُ اللهُ عليه يَحْصُلُ تَحَوُّلُهُمْ مِنَ الحَقِّ إلىٰ الباطِلِ، وَمِنَ الإسلامِ إلىٰ الكُفْرِ.

قَوْلُهُ: «فَهَلْ تَجِدونَ فِيهَا جَدْعَاءَ؟ يَعْني: أنَّها سليمةٌ مُجْتمعةُ الخَلْقِ، ليس فيها عُيُوبٌ، ثُمَّ النَّاسُ بَعْدَ ذلك يَحْصُلُ مِنْهُمُ الإضرارُ بها، وقَطْعُ أُذُنِها، فَيَكُونُونَ قَدْ نَقَلُوها مِنَ الحالةِ الَّتي خَلَقَها اللهُ ﷻ عليها - وهي السَّلامةُ وتَمامُ الخَلْقِ - إلىٰ هَيْئَةٍ أُخْرَىٰ، وإلىٰ حالةٍ أُخْرَىٰ، وكذلك الَّذين خَلَقَهُمُ اللهُ حُنَفَاءَ علىٰ الإسلامِ، وَفَطَرَهُمْ عليه، يَخْرُجونَ عَنْهُ بِفِعْلِ آبائِهِمْ، وأُمَّهاتِهِمْ، والَّذين يُضِلُّونَهُمْ ويَصْرِفُونَهُمْ عَنِ الحَقِّ، فهذا فيه تَوْضِيحٌ: أنَّ الذي علىٰ الفِطْرةِ علىٰ سلامةٍ وعلىٰ استقامةٍ، وأنَّ الحَيَوانَ الَّذي يُولَدُ وينشأُ يَكُونُ علىٰ استقامةٍ حتَّىٰ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ أَنَّهُمْ يُحْدِثُونَ فِيهِ ما يُحْدِثُونَ مِنَ العُيُوبِ.

قَوْلُهُ: قالوا: يا رسولَ اللهِ، أفرأيتَ مَنْ يَمُوتُ وَهُوَ صَغِيرٌ؟

يَعْنِي: قَبْلَ أَنْ يُصْرَفَ ويُحَرَّفَ؛ لأنَّه قال: «فأبواه يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانِهِ»، وإذا كان - مَثَلًا - مِنْ أولادِ المُشْرِكينَ فما هَوَّدُوهُ ولا نَصَّرُوهُ، ولكنْ نَقَلُوهُ عَنِ الفِطْرَةِ الَّتي هُوَ عليها إلىٰ دِينٍ آخَرَ مِنْ أَدْيَانِ أَهْلِ الكُفْرِ.

قَوْلُهُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -: «اللهُ أَعْلَمُ بما كانوا عاملين» هذا مِثْلُ الجَوابِ الَّذي سُئِلَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ أولادِ المُشْرِكينَ، فقال: «اللهُ أَعْلَمُ بما كانوا عامِلِينَ» يَعْنِي: أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ القيامةِ، وعلىٰ ضَوْءِ نَتِيجَةِ الامتحانِ يَكُونُ الانقسامُ(١).

---

(١) انظر «شرح سنن أبي داوُدَ للعبَّاد» - حفظه الله - دروس رقم (٥٣٢) درسًا بتصرُّفٍ يَسيرٍ.

الحديثُ الخامسَ عشرَ

وُجوبُ الإيمانِ برسالةِ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ

عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قال: «والَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيدِهِ، لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بالَّذي أُرْسِلْتُ بِهِ - إلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ» أمَّةُ نبيِّنا محمَّد ﷺ أُمَّتانِ: أُمَّةُ دَعْوةٍ، وأُمَّةُ إجابةٍ. فأُمَّةُ الدَّعْوةِ: هُمْ كُلُّ إنسيٍّ وَجِنِّيٍّ مِنْ حِينِ بَعْثَتِهِ إلىٰ قِيامِ السَّاعةِ.

وأُمَّةُ الإجابةِ: هُمُ الَّذين وفَّقهم اللهُ للدُّخولِ في دِينِهِ الحَنِيفِ، وصاروا مِنَ المُسْلمينَ.

والمُرادُ مِنَ الأُمَّةِ في هذا الحديثِ أُمَّةُ الدَّعْوةِ، وَمِنْ أمثلةِ أُمَّةِ الإجابةِ قَوْلُهُ ﷺ: «إنَّ اللهَ تَجاوَزَ لي عَنْ أُمَّتي الخطأَ، والنِّسْيانَ، وما اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»(٢).

قال النَّوويُّ رحمه الله: (قَوْلُهُ ﷺ: «لا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ» أيْ: مَنْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي زَمَنِي وَبَعْدِي إِلَىٰ يَوْمِ القيامةِ، فكُلُّهُمْ يَجِبُ عليهمُ الدُّخُولُ فِي طَاعَتِهِ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْيَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ تَنْبِيهًا عَلَىٰ مَنْ سِوَاهُمَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْيَهُودَ والنَّصارَىٰ

---

(١) رواه مسلم (١٥٣).

(٢) (صحيح) رواه ابنُ ماجة (٢٠٤٣)، والبيهقي في «السُّنن الكُبْرىٰ» (٦/ ٨٤)، وصحّحه الألبانيُّ في «المشكاة» (٦٢٨٤).

لَهُمْ كِتَابٌ، فَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنَهُمْ - مَعَ أَنَّ لَهُمْ كِتَابًا - فَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَا كِتَابَ لَهُ أَوْلَىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ)[١].

ففي هذا الحديث مِنَ الفِقْهِ وُجُوبُ اتِّبَاعِهِ ﷺ، ونَسْخُ جَمِيعِ الشَّرائعِ بشَرْعِهِ، فمن كَفَرَ به؛ لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ بغَيْرِهِ مِنَ الأنبياءِ - صلواتُ اللهِ عليهم أجمعينَ -.

---

(١) انظر «شرح النَّوويِّ علىٰ مسلمٍ» (٢/ ١٨٨).

الحديث السادس عشر

كيف بدء الخلق؟

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما قَالَ: إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا بَنِي تَمِيمٍ»، قَالُوا: بَشَّرْتَنَا فَأَعْطِنَا. فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: «اقْبَلُوا الْبُشْرَىٰ يَا أَهْلَ الْيَمَنِ، إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ». قَالُوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ مَا كَانَ؟ قَالَ: «كَانَ اللهُ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ».

ثُمَّ أَتَانِي رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ، فَقَدْ ذَهَبَتْ، فَانْطَلَقْتُ أَطْلُبُهَا، فَإِذَا السَّرَابُ(١) يَنْقَطِعُ دُونَهَا، وَايْمُ اللهِ(٢)، لَوَدِدْتُ أَنَّهَا قَدْ ذَهَبَتْ وَلَمْ أَقُمْ(٣).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «اقبلوا البُشْرىٰ يا بني تميمٍ...» إلخ فيه: أنَّ بَني تميمٍ استعجلوا، فأراد ﷺ أن يُبَشِّرَهُمْ بالخَيْرِ، فاستعجلوا، فكأنَّهم أرادوا شيئًا مِنَ الدُّنيا؛ فلذلك غَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ، فلمَّا جاء أَهْلُ اليَمَنِ قال: «اقبلوا البُشْرَىٰ بَعْدَ إِذْ لَمْ يَقْبَلْها بَنُو تَمِيمٍ» فقالوا: قَبِلْنَا، جِئْنَاكَ لِنتفقَّهَ في الدِّينِ، ولنسألَكَ عَنْ أَوَّلِ هذا الأَمْرِ ما كَانَ؟ أَيْ: يسألُوه عَنْ أَوَّلِ هذا الأَمْرِ المُشاهَدِ مِنَ المَخْلُوقاتِ: كالسَّموات، فقال النَّبِيُّ ﷺ: «كان اللهُ ولَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ» وفي روايةٍ: «كانَ اللهُ ولم يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ» وفي لَفْظٍ: «كان اللهُ ولم يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ».

---

(١) السَّراب: الَّذي يراه الإنسانُ نِصْفَ النَّهارِ كأنَّهُ ماءٌ.

(٢) وايمُ اللهِ: اسم وُضِعَ للقَسَمِ، وألفه ألف وصلٍ عِنْدَ أكثرِ النَّحْوِيِّينَ، وأصلُها أيمنٌ، وحُذِفَتِ الهمزةُ.

(٣) رواه البخاريُّ (٧٤١٨).

وفيه: إثباتُ وُجُودِ اللهِ، وأنَّ اللهَ - سبحانه - هُوَ الأوَّلُ وليس قَبْلَهُ شَيْءٌ، كما قال - تعالىٰ -: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ فسَّر النَّبيُّ ﷺ هذِهِ الأسماءَ الأربعةَ في حديثِ الاستفتاحِ في قَوْلِهِ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ الأوَّلُ، فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ، فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وأنت الظَّاهِرُ، فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وأنت الباطِنُ، فليس دُونَكَ شَيْءٌ»[1]. فقولُهُ: «الظَّاهِر»: فيهِ إثباتُ العُلُوِّ، و«الباطن»: الَّذي لا يَحْجُبُهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ: «وكتب في الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ» الذِّكْرُ: هُوَ اللَّوْحُ المَحْفُوظُ، كتب فيه كُلَّ شَيْءٍ. ففيه إثباتُ الكتابةِ للهِ ﷻ، وأنَّها مِنَ الصِّفاتِ الفِعْلِيَّةِ الَّتي تتعلَّقُ بالمشيئةِ والاختيارِ، جاء في حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «كتب اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرْضَ بخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وكان عَرْشُهُ علىٰ الماءِ»[2]. إذًا المقاديرُ مكتوبةٌ قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ بخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وفي حِينِ كتابةِ المقاديرِ كان العَرْشُ علىٰ الماءِ، فالعَرْشُ والماءُ مَخْلُوقانِ قَبْلَ كتابةِ المَقَادِيرِ.

وهذا مِنَ الأدلَّةِ علىٰ أنَّ العَرْشَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ القَلَمِ، والمسألةُ فِيها قَوْلانِ لأهْلِ العِلْمِ في أوَّلِ المخلوقاتِ: هَلْ هُوَ العَرْشُ أوِ القَلَمُ؟، حكَاهَا ابْنُ القيِّمِ في «النُّونيَّةِ»، فقال:

والنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ في القَلَمِ الَّذي ... كُتِبَ القَضاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كانَ قَبْلَ العَرْشِ أمْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلانِ عِنْدَ أَبِي العَلا الهَمَدَانِي
والحَقُّ أنَّ العَرْشَ قَبْلُ؛ لأنَّهُ ... قَبْلَ الكِتَابَةِ كانَ ذا أرْكَانِ

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) رواه مسلم (٢٦٥٣).

فالصَّوابُ: أنَّ العَرْشَ مَخْلُوقٌ - أوَّلًا - قَبْلَ القَلَمِ، كما في حديثِ البابِ، وفي حديثٍ آخَرَ: «أَوَّل ما خَلَقَ اللهُ القَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قال: ربِّ، وما أَكْتُبُ؟ قال: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ». وفي لفظٍ آخَرَ: «فَجَرَىٰ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كائنٌ إلىٰ يَوْمِ القيامةِ»[1]. فكتابةُ المقاديرِ كانتْ عِنْدَ أوَّلِ خَلْقِ القَلَمِ، أيْ: قال لَهُ اللهُ: اكْتُبْ عِنْدَ أوَّلِ خَلْقِهِ، فالأوَّلِيَّةُ مُقيَّدةٌ بالكتابةِ، وهذا أصَحُّ القَوْلَيْنِ.

وحديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ أفَادَ أنَّهُ عِنْدَ كتابةِ المَقَادِيرِ، كان عَرْشُهُ علىٰ الماءِ، فالعَرْشُ والماءُ مَوْجُودَانِ أوَّلًا.

قَوْلُهُ: «ثُمَّ أتاني رَجُلٌ، فقال: يا عِمْرَانُ، أَدْرِكْ نَاقَتَكَ؛ فقد ذهبتْ... لوددت أنها ذهبت، ولم أَقُمْ»: أيْ: وَدَّ عِمْرَانُ رضي الله عنه أنَّهُ جَلَسَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ؛ حتَّىٰ يَسْتَمِعَ للعِلْمِ ويَسْتَفِيدَ، وَلَوْ ذَهَبَتِ النَّاقَةُ[2].

---

(١) «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاريّ» (٥٠) للشيخ عبد العزيز الراجحيّ.

(٢) (صحيح) رواه التِّرمِذِيُّ (٣٢١٩)، وأبو داوُدَ (٤٧٠٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢٠١٦).

الحديثُ السابعَ عشَرَ

التَّشكِيكُ في الإيمانِ مِن عَمَلِ الشَّيطَانِ

عَن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُم، فَيَقُولُ: مَن خَلَقَ كَذَا؟، مَنْ خَلَقَ كَذَا؟، حَتَّىٰ يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟، فَإِذا بلغه، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ»(١).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسلِمٍ: «فَلْيَقُلْ: آمَنتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ»(٢).

الشَّرْحُ:

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ في شَرْحِهِ للحديثِ السَّابقِ: (قَوْلُهُ: «مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ، فَإِذَا بَلَغَهُ، فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ وَلْيَنْتَهِ» أَيْ: عَنِ الاسْتِرْسَال مَعَهُ فِي ذَلِكَ، بَلْ يَلْجَأُ إِلَىٰ اللهِ فِي دَفْعِهِ، وَيَعْلَم أَنَّهُ يُرِيدُ إِفْسَادَ دِينِهِ وَعَقْلِهِ بِهَذِهِ الْوَسْوَسَةِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يَجْتَهِدَ فِي دَفْعِهَا بِالِاشْتِغَالِ بِغَيْرِهَا.

قَالَ الْخَطَّابِيُّ: وَجْهُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الشَّيْطَان إِذَا وَسْوَسَ بِذَلِكَ، فَاسْتَعَاذَ الشَّخص بِاللهِ مِنْهُ، وَكَفَّ عَنْ مُطَاوَلَتِهِ فِي ذَلِكَ - انْدَفَعَ... فَلَيْسَ لِوَسْوَسَتِهِ انْتِهَاءٌ، بَلْ كُلَّمَا أُلْزِمَ حُجَّةً، زَاغَ إِلَىٰ غَيْرِهَا، إِلَىٰ أَنْ يُفْضِيَ بِالْمَرْءِ إِلَىٰ الْحَيرةِ، نَعُوذ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ... عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ كَلَامٌ مُتَهَافِتٌ يَنْقُضُ آخِرُهُ أَوَّلَهُ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا.

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) رواه مسلم (١/ ١٢٠).

وَقَالَ الطِّيبِيُّ: إِنَّمَا أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ وَالِاشْتِغَالِ بِأَمْرٍ آخَرَ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِالتَّأَمُّلِ وَالِاحْتِجَاجِ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِاسْتِغْنَاءِ اللهِ ﷻ عَنِ الْمُوجِدِ أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لَا يَقْبَلُ الْمُنَاظَرَةَ، وَلِأَنَّ الِاسْتِرْسَالَ فِي الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ لَا يَزِيدُ الْمَرْءَ إِلَّا حَيْرَةً، وَمَنْ هَذَا حَالُهُ فَلَا عِلَاجَ لَهُ إِلَّا الْمَلْجَأُ إِلَى اللهِ - تَعَالَى -، وَالِاعْتِصَامُ بِهِ)[١].

قَوْلُهُ: «فَلْيَقُلْ: آمَنتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ» أَيْ: فَلْيَقُلْ: أُخَالِفُ عَدُوَّ اللهِ الْمُعَانِدَ، وأُومِنُ بِاللهِ، وَبِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ[٢].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٤١) باختصارٍ يسيرٍ.

(٢) «التَّيسيرُ بشَرحِ الجامعِ الصَّغيرِ» (١/ ٢٩٠) للمُناوِيِّ.

الحديث الثامن عشر

إثبات العلو لله

عن مُعَاوِيَةَ بنِ الحَكَمِ رضي الله عنه قال: كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ، تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ، فَإِذَا الذِّئْبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِنَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ؛ آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «ائْتِنِي بِهَا». فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»[1].

الشَّرْح:

قال ابنُ عُثَيمِين رحمه الله: (قَوْلُهُ: «أين الله؟» (أين): يُسْتَفْهَمُ بِهَا عَنِ المَكَانِ.

«قالتْ: في السَّماءِ» يَعْني: على السَّماءِ، أو: في العُلُوِّ؛ على حَسَبِ الاحتمالَيْنِ السَّابِقَيْنِ.

«قال: مَنْ أنا؟ قالتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قال: أَعْتِقْهَا؛ فإنَّها مُؤْمِنةٌ».

وَعِنْدَ أَهْلِ التَّعْطيلِ هي بقَوْلِهَا: «في السَّماءِ»: إذا أرادتْ أنَّه في العُلُوِّ؛ هي كافرة؛ لأنَّهم يَرَوْنَ أنَّ مَنْ أَثْبَتَ أنَّ اللهَ في جِهَةٍ فهو كافرٌ؛ إذْ يَقُولُونَ: إنَّ الجِهَاتِ خاليةٌ مِنْهُ.

واستفهامُ النَّبيِّ ﷺ بـ (أَيْنَ) يَدُلُّ على أنَّ للهِ مَكَانًا. وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أنَّ اللهَ - تعالى - لا تُحِيطُ بِهِ الأمكنةُ؛ لأنَّهُ أكبرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وأنَّ ما فَوْقَ الكَوْنِ عَدَمٌ، ما ثَمَّ إلَّا اللهُ؛ فَهُوَ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

---

(١) مسلم (٥٣٧).

وفي قَوْلِهِ: «أَعْتِقْهَا؛ فإنَّها مُؤْمِنَةٌ». دليلٌ على أنَّ عِتْقَ الكافرِ لَيْسَ بمشروعٍ؛ ولهذا لا يُجْزِئُ عِتْقُهُ في الكفَّاراتِ؛ لأنَّ بقاءَ الكافرِ عِنْدَكَ رَقِيقًا فيه نَوْعُ حِمايةٍ لَهُ، وسُلْطةٍ وإمرةٍ وتقريبٍ مِنَ الإسلامِ؛ فإذا أعتقْتَهُ تحرَّر، وإذا تحرَّر فَيُخْشَىٰ مِنْهُ أَنْ يَرْجِعَ إلىٰ بلادِ الكُفْرِ؛ لأنَّ أصْلَ الرِّقِّ هُوَ الكُفْرُ، وَيَبْقَىٰ مُعِينًا للكافرينَ علىٰ المُؤْمنين)[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (عُلُوُّ اللهِ - تعالىٰ - ثابتٌ بالكتابِ، والسُّنَّةِ، والعَقْلِ، والفِطْرَةِ، والإجماعِ:

أمَّا الكتابُ: فَقَدْ تَنَوَّعَتْ دلالتُهُ علىٰ ذلك.

فتارةً بلفظِ العُلُوِّ والفَوْقِيَّةِ والاستواءِ علىٰ العَرْشِ، وكَوْنِهِ في السَّماءِ؛ كقَوْلِهِ - تعالىٰ -: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾.

وتارةً بلفظِ صُعُودِ الأشياءِ وعُرُوجِها وَرَفْعِها إليه، كقولِهِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾.

وتارةً بلفظِ نُزُولِ الأشياءِ مِنْهُ، ونَحْوِ ذلك، كقوله - تعالىٰ -: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾، ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.

وأمَّا السُّنَّةُ: فَقَدْ دلَّتْ عليه بأنواعِها: القَوْليَّةِ، والفِعْليَّةِ، والإقراريَّةِ في أحاديثَ كثيرةٍ تَبْلُغُ حدَّ التَّواترِ، وعلىٰ وُجُوهٍ مُتنوِّعةٍ، كقولِهِ ﷺ في سُجُودِهِ: «سبحان ربي الأعلىٰ»[2]. وقَوْلِهِ: «إنَّ اللهَ لمَّا قَضَىٰ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إنَّ رَحْمَتِي

---

(١) «شرح العقيدة الواسطيَّة» (٢/ ٤٣ - ٤٤).

(٢) رواه مسلم (٧٧٢).

سَبَقَتْ غَضَبِي»[١]. وقَوْلِهِ: «أَلا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟»[٢]. وثبت عَنْهُ أَنَّه رَفَعَ يَدَيْهِ، وَهُوَ علىٰ المِنبَرِ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَغِثْنَا»[٣]. وأَنَّهُ رَفَعَ يَدَهُ إِلىٰ السَّماءِ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمَ عَرَفَةَ، حِينَ قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بلَّغتَ، وأدَّيتَ ونَصَحْتَ. فقال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»[٤]. وأنَّه قال للجارِيَةِ: «أينَ اللهُ؟» قالتْ: في السَّماءِ. فأقرَّها، وقال لسيِّدِها: «أعتِقْهَا؛ فإنَّها مُؤْمِنةٌ».

وأمَّا العَقْلُ: فَقَدْ دَلَّ علىٰ وُجُوبِ صِفَةِ الكَمَالِ للهِ - تعالىٰ -، وتنزيهِهِ عَنِ النَّقْصِ، والعُلُوُّ صِفَةُ كَمَالٍ، والسُّفْلُ نَقْصٌ؛ فَوَجَبَ للهِ - تعالىٰ - صِفَةُ العُلُوِّ، وتنزيهُهُ عَنْ ضِدِّهِ.

وأمَّا الفِطْرَةُ: فَقَدْ دلَّتْ علىٰ عُلُوِّ اللهِ - تعالىٰ - دلالةً ضروريَّةً فِطْرِيَّةً؛ فما مِنْ داعٍ أو خائفٍ فَزِعَ إلىٰ ربِّهِ - تعالىٰ - إلَّا وَجَدَ في قَلْبِهِ ضَرُورةَ الاتِّجاهِ نَحْوَ العُلُوِّ، لا يَلتَفِتُ عَنْ ذلك يَمْنَةً ولا يَسْرَةً.

واسْأَلِ المُصَلِّين، يَقُولُ الواحدُ مِنْهُمْ في سُجُودِهِ: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَىٰ»: أَيْنَ تَتَّجِهُ قُلُوبُهُمْ حِينَذَاكَ؟

وأمَّا الإجماعُ: فَقَدْ أَجْمَعَ الصَّحابةُ، والتَّابِعُون، والأئمَّةُ علىٰ أنَّ الله - تعالىٰ - فَوْقَ سمواتِهِ، مُسْتَوٍ علىٰ عَرْشِهِ، وكلامُهُمْ مَشْهُورٌ في ذلك نَصًّا وظاهرًا، قال

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤٢٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧).

(٤) رواه مسلم (١٢١٨).

الأوزاعيُّ: «كُنَّا والتَّابِعُونَ مُتَوافِرُونَ، نَقُولُ: إنَّ الله - تعالىٰ ذِكْرُهُ - فَوْقَ عَرْشِهِ، ونُؤْمِنُ بما جاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنَ الصِّفَاتِ». وَقَدْ نَقَلَ الإجماعَ علىٰ ذلك غَيْرُ واحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ، ومُحَالٌ أَنْ يَقَعَ في مِثْلِ ذلك خِلافٌ، وَقَدْ تَطَابَقَتْ عليه هذِهِ الأدلَّةُ العَظِيمةُ، الَّتي لا يُخَالِفُهَا إلَّا مُكَابِرٌ، طُمِسَ علىٰ قَلْبِهِ، واجْتَالَتْهُ الشَّياطِينُ عَنْ فِطْرَتِهِ، نسألُ الله - تعالىٰ - السَّلامةَ والعافيةَ. فَعُلُوُّ اللهِ - تعالىٰ - بذاتِهِ وصفاتِهِ مِنْ أَبْيَنِ الأشياءِ وأَظْهَرِهَا دَلِيلًا، وأَحَقِّ الأشياءِ وأَثْبَتِهَا واقعًا)[1].

---

(١) «القواعدُ المُثْلَىٰ في صفاتِ اللهِ وأسمائِهِ الحُسْنَىٰ» (٦١ - ٦٣) محمد بن صالح العثيمين.

الحديثُ التاسعَ عشرَ

الإيمانُ بِمُعجزاتِ الأنبياءِ - عليهمُ السّلامُ -

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١).

الشرح:

قال الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «فالحديثُ اخْتُلِفَ فِيهِ عَلَىٰ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ أُعْطِيَ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ مَا كَانَ مِثْلُهُ لِمَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَآمَنَ بِهِ الْبَشَرُ، وَأَمَّا مُعْجِزَتِي الْعَظِيمَةُ الظَّاهِرَةُ فَهِيَ الْقُرْآنُ الَّذِي لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِثْلَهُ؛ فَلِهَذَا قَالَ: أَنَا أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا.

وَالثَّانِي: مَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي أُوتِيتُهُ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ تَخْيِيلٌ بِسِحْرٍ وَشُبْهَةٍ بِخِلَافِ مُعْجِزَةِ غَيْرِي، فَإِنَّهُ قَدْ يُخَيِّلُ السَّاحِرُ بِشَيْءٍ مِمَّا يُقَارِبُ صُورَتَهَا، كَمَا خَيَّلَتِ السَّحَرَةُ فِي صُورَةِ عَصَا مُوسَىٰ ﷺ، وَالْخَيَالُ قَدْ يَرُوجُ عَلَىٰ بَعْضِ الْعَوَامِّ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالسِّحْرِ وَالتَّخْيِيلِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ فِكْرٍ وَنَظَرٍ، وَقَدْ يُخْطِئُ النَّاظِرُ؛ فَيَعْتَقِدُهُمَا سَوَاءً.

وَالثَّالِثُ: مَعْنَاهُ أَنَّ مُعْجِزَاتِ الأَنْبِيَاءِ انْقَرَضَتْ بِانْقِرَاضِ أَعْصَارِهِمْ، وَلَمْ يُشَاهِدْهَا إِلَّا مَنْ حَضَرَهَا بِحَضْرَتِهِمْ، وَمُعْجِزَةُ نَبِيِّنَا ﷺ الْقُرْآنُ الْمُسْتَمِرُّ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَعَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٨١)، ومسلم (٢٣٩/ ١٥٢).

خَرْقِ الْعَادَةِ فِي أُسْلُوبِهِ وَبَلَاغَتِهِ، وَإِخْبَارِهِ بِالْمُغَيَّبَاتِ، وَعَجْزِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ عَنْ أَنْ يَأْتُوا بسورةٍ مِنْ مِثْلِهِ مُجْتَمِعينَ أو متفرِّقين في جميعِ الأعصارِ، مع اعْتِنَائِهِمْ بِمُعَارَضَتِهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا، وَهُمْ أَفْصَحُ الْقُرُونِ، مَعَ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ إِعْجَازِهِ الْمَعْرُوفَةِ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ ﷺ: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا» عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ؛ فَإِنَّهُ أَخْبَرَ ﷺ بِهَذَا فِي زَمَنٍ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ مَنَّ اللهُ - تَعَالَىٰ - وَفَتَحَ عَلَىٰ الْمُسْلِمِينَ الْبِلَادَ، وَبَارَكَ فِيهِمْ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ الْأَمْرُ، وَاتَّسَعَ الْإِسْلَامُ فِي الْمُسْلِمِينَ إِلَىٰ هَذِهِ الْغَايَةِ الْمَعْرُوفَةِ، وَللهِ الْحَمْدُ عَلَىٰ هَذِهِ النِّعْمَةِ، وَسَائِرِ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ، وَاللهُ أَعْلَمُ)[1].

---

(١) «شرح النَّوويِّ على مسلم» (٢/ ١٨٨).

الحديث العشرون

القرآن كلام الله غير مخلوق

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فَقَالَ: «أَلا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؛ فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلامَ رَبِّي»(١).

الشَّرْحُ:

الحديثُ فِيهِ إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّ اللهَ يتكلَّم؛ لقولِهِ ﷺ: «أُبَلِّغ كلامَ رَبِّي»، فَيُفْهَمُ مِنْهُ: أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ، وكلامُ اللهِ صفةٌ مِنْ صِفَاتِهِ.

قال الآلوسيُّ رَحِمَهُ اللهُ: (كلامُ اللهِ - تعالى - هُوَ القُرآنُ الشَّريفُ، غَيْرُ مَخلُوقٍ كَيْفَما قرئ وتُلِيَ وكُتِبَ، وكَيْفَما تفرَّقَتْ بِهِ قِراءَةُ قارئٍ، ولَفْظُ لافظٍ، وحِفْظُ حافظٍ.

هُوَ كَلَامُ اللهِ - تعالى -، وصِفةٌ مِنْ صِفَاتِ ذاتِهِ، غَيْرُ مُحْدَثٍ، ولا مُبَدَّلٍ، ولا مُغَيَّرٍ، ولا مُؤَلَّفٍ، ولا مَنْقُوصٍ، ولا مَصْنُوعٍ، ولا مُزَادٍ فِيهِ. مِنْهُ بَدَأَ تنزِيلُهُ، وإليهِ يَعُودُ حُكْمُهُ، كما قال النَّبيُّ ﷺ في حديثِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّ فَضْلَ القُرآنِ على سائرِ الكلامِ كَفَضْلِ اللهِ - تعالى - على سائرِ خَلْقِهِ».

وذلك أنَّ القُرآنَ الشَّريفَ مِنْهُ - تبارك وتعالى - خَرَجَ، وإليهِ يَعُودُ حكمُهُ، فَمَعْنَاهُ: أنَّ تَنْزِيلَهُ وظُهُورَهُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ، وإليهِ يَعُودُ حُكْمُهُ الَّذي هُوَ العِبادَاتُ مِنْ أداءِ

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (١٥٢٢٩٩)، وابنُ ماجَهْ (٢٠١)، والتِّرمذيُّ (٢٩٢٥)، وأبو داوُدَ (٤٧٣٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجَهْ» (٢٠١)، وصحَّحه شيخُنا الوادعيُّ في «الصَّحيح المسند» (٢١٦).

الأوامرِ، وانتهاءِ النَّواهي، لأجْلِهِ تفعلُ وتتركُ، فالأحكامُ عائدةٌ إليه عَزَّوَجَلَّ. وقِيلَ: مِنْهُ بَدَأَ حُكْمًا، وإليهِ يَعُودُ عِلْمًا.

هُوَ كَلَامُ اللهِ - تعالىٰ - فِي صُدُورِ الحافِظِينَ، وأَلْسُنِ النَّاطِقِينَ، في أَكُفِّ الكاتبينَ، ومُلَاحظةِ الناظرين، ومَصَاحفِ أَهْلِ الإسلامِ، وأَلْواحِ الصِّبْيانِ حَيْثُما رُؤِيَ وَوُجِدَ. فَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ أَوْ عِبارَتُهُ، أَوِ التِّلَاوةَ غَيْرُ المَتْلُوِّ، أَوْ قال: لَفْظِي بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ - فَهُوَ كافِرٌ باللهِ العظيمِ؛ ولا يُخَالَطُ، ولا يُؤَاكَلُ، ولا يُنَاكَحُ، ولا يُجَاوَرُ، بَلْ يُهْجَرُ ويُهَانُ، ولا يُصَلَّىٰ خَلْفَهُ، ولا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ، ولا تَصِحُّ وِلَايَتُهُ في نِكَاحِ وليِّهِ، ولا يُصَلَّىٰ عَلَيْهِ إذا مات، فَإِنْ ظُفِرَ بِهِ اسْتُتِيبَ ثلاثًا كالمُرْتَدِّ، فإنْ تاب وإلَّا قُتِلَ.

سُئِلَ الإمامُ أحمدُ بْنُ حَنْبَلٍ - رحمه اللهُ تعالىٰ - عَمَّنْ قال: لَفْظِي بالقُرْآنِ مَخْلُوق. فقال: كَفَرَ.

وقال - رحمه الله تعالىٰ -: فَمَنْ قال: القُرآنُ كَلَامُ اللهِ لَيْسَ بمَخْلُوقٍ، والتِّلَاوةُ مَخلوقةٌ كَفَرَ[(١)].

وقال ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّهُ إذا كان اللهُ أَنْزَلَهُ؛ فَهُوَ كلامُهُ لا كلامُ غَيْرِه، كما قَالَهُ السَّلَفُ - رحمهم اللهُ -، وهو غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ لأنَّ جَمِيعَ صفاتِ اللهِ - حَتَّىٰ الصِّفَاتِ الفِعْلِيَّةِ - لَيْسَتْ مَخْلُوقةً.

والقرآنُ كلامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ.

فإنْ قِيلَ: هَلْ كُلُّ مُنَزَّلٍ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟

---

(١) «جلاء العينين في مُحَاكمةِ الأحمدين» (٣٥٢ - ٣٥٣)، نعمان بْنِ محمود بن عبد الله، أبو البركات خير الدين الألوسيّ.

قُلْنَا: لَا، لكنْ كُلُّ مُنَزَّلٍ يَكُونُ وصفًا مُضَافًا إلىٰ اللهِ فَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ: كالكَلَامِ، وإلَّا فإنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ماءً، وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وقال - تعالىٰ -: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزُّمر: ٦]، والأنعامُ مَخْلُوقةٌ، فإذا كان المُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِ اللهِ صِفَةً لا تَقُومُ بذاتِها، وإنَّما تَقُومُ بغَيْرِها - لَزِمَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ؛ لأنَّهُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ»[1].

---

(١) «القول المفيد» (٢/ ٣٩).

الحديثُ الحادي والعِشرُون

منزلةُ العَمَلِ مِنَ الإيمانِ

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُها قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(١).

الشَّرْحُ:

فالحديثُ صَرِيحٌ علىٰ أنَّ القَوْلَ: كَقَوْلِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، والعَمَلَ: كإماطةِ الأذىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، والاعتقادَ: كالحَيَاءِ(٢) مِنَ الإيمانِ(٣). فَمَنْ لَمْ يَنْطِقْ بكَلِمَةِ التَّوحيدِ مَعَ القُدْرَةِ، فهو كافرٌ بالاتِّفَاقِ(٤)، وَمَنْ لَمْ يُوجَدْ في قَلْبِهِ عَمَلُ القَلْبِ مِنْ أَصْلِ: الخَوْفِ، والرَّجاءِ، والحُبِّ، والتَّوكُّلِ - فَهُوَ كافِرٌ بالاتِّفَاقِ(٥)، وما زاد علىٰ أَصْلِ الخَوْفِ، والحُبِّ، والرَّجاءِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٩) وَمُسلم (٦١).

(٢) الحياء: عمل القلب.

(٣) قال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ: «الإيمانُ: المعرفةُ بالقَلْبِ، والإقرارُ باللِّسان، والتَّفْضِيلُ بالعَمَلِ» ا.هـ «كتاب السُّنَّة» لعبدِ اللهِ بْنِ أحمدَ (١/ ٣٤٧). وقال وَكِيعٌ: «أَهْلُ السُّنَّةِ يَقُولُونَ: الإيمانُ قَوْلٌ وعَمَلٌ» ا.هـ «شرح اعتقاد أَهْلِ السُّنَّةِ والجَمَاعةِ» (٤/ ٩٣٠).

(٤) قال ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «فأمَّا الشَّهادَتَانِ إذا لَمْ يتكلَّمْ بهما مَعَ القُدْرَةِ، فَهُوَ كافرٌ باتِّفَاقِ المُسْلمين» ا.هـ «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٠٩).

(٥) قال ابْنُ القيِّمِ: «فأهلُ السُّنَّةِ مُجْمِعُونَ علىٰ زَوَالِ الإيمانِ، وَأَنَّهُ لا يَنْفَعُ التَّصْدِيقُ، مَعَ انتفاءِ عَمَلِ القَلْبِ ومحبَّتِهِ وانقيادِهِ» ا.هـ «كتاب الصَّلاة» (ص٥٤). ونقل - أيضًا - اتِّفَاقَ المُسلمين ابْنُ تَيْمِيَّةَ راجع «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٥٥٠). فإنْ قِيلَ: ما الفَرْقُ بَيْنَ أقوالِ القَلْبِ وأعمالِهِ؟، =

فَهُوَ ما بَيْنَ واجبٍ وَمُسْتَحَبٍّ(١)، وَمَنْ دَخَلَ الإسلامَ، ولَمْ يَعْمَلْ شَيْئًا مِن أعمالِ الجَوارِحِ، مَعَ قُدْرَتِهِ - ولا مانِعَ - وبقائِهِ زَمنًا - فَهُوَ كافرٌ بالاتّفاقِ(٢).

وأفرادُ أعمالِ الجَوارِحِ بالنِّسبةِ للإيمانِ ما بَيْنَ واجبٍ يَأْثَمُ المُسْلِمُ بتَرْكِهِ - وفي التَّكْفِيرِ بِتَرْكِ بَعْضِهَا نِزاعٌ كالمَبانِي الأربعةِ: مِنْ صلاةٍ، وصَوْمٍ، وزكاةٍ، وحَجٍّ، أو أحَدِهَا على قَوْلٍ عِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ، فإنَّ تَكْفِيرَ تارِكِ المَبانِي الأربعةِ أوْ أحَدِهَا مَسْألَةٌ خِلافيةٌ عِنْدَ أهْلِ السُّنَّةِ - وما بَيْنَ مُسْتَحَبٍّ يُثَابُ على فِعْلِهِ امْتِثالًا(٣).

= يُقالُ: هُوَ ما ذكره الشَّيخُ عبدُ الرَّحمنِ السَّعديُّ رَحِمَهُ اللهُ، فقال: «والفَرْقُ بَيْنَ أقْوالِ القَلْبِ وبَيْنَ أعْمالِهِ: أنَّ أقوالَهُ هِيَ العَقائِدُ الَّتي يَعْتَرِفُ بِهَا القَلْبُ ويَعْتَقِدُها. وأعمالُ القَلْبِ: فهي حَرَكَتُهُ الَّتي يُحِبُّهَا اللهُ ورَسُولُهُ» ا.هـ «كتاب التنبيهات اللَّطيفة على ما احْتَوَتْ عَلَيْهِ العَقِيدةُ الواسطيَّةُ مِنَ المباحثِ المُنِيفةِ» (ص٨٥).

(١) قال ابْنُ مَنْدَهْ: «وقال أهلُ الجَماعةِ: الإيمانُ هِيَ الطَّاعاتُ كُلُّها بالقَلْبِ، واللِّسانِ، وسائرِ الجَوارِحِ، غَيْرَ أنَّ لَهُ أصْلًا وفَرْعًا، فأصْلُهُ المعرفةُ باللهِ، والتَّصديقُ لَهُ وبِهِ، وبما جاء مِنْ عِنْدِهِ بالقَلْبِ واللِّسانِ، مَعَ الخُضُوعِ لَهُ والحُبِّ لَهُ، والخَوْفِ مِنْهُ، والتَّعظِيمِ لَهُ، مَعَ تَرْكِ التَّكَبُّرِ والاستنكافِ والمُعَانَدةِ، فإذا أتى بهذا الأصْلِ، فَقَدْ دَخَلَ في الإيمانِ، ولَزِمَهُ اسْمُهُ وأحكامُهُ، ولا يَكُونُ مُسْتكملًا لَهُ حتَّى يأتِيَ بفَرْعِهِ، وفَرْعُهُ المُفْتَرَضُ عَلَيْهِ، أوِ الفرائضُ، واجتنابُ المَحارِمِ» اهـ «الإيمان» لابْنِ مَنْدَهْ (١/ ٣٣١).

(٢) قد حكى الإجماعَ ابْنُ تيميَّةَ كما في «الفتاوى» (١٤/ ١٢٠).

(٣) انظر «موقف العلَّامة الألبانيِّ رَحِمَهُ اللهُ مِنَ الإرجاء» (١ - ٣) باختصار.

الحديثُ الثّاني والعِشرُون

الإيمانُ يَزِيدُ وينقُصُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١).

الشَّرْحُ:

فالمرادُ بهذا الحديثِ نَفْيُ كَمَالِ الإيمانِ الواجبِ عمَّنِ اقْتَرَفَ هذِهِ المَعَاصِي، وأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ هذِهِ المعاصِيَ وَهُوَ كاملُ الإيمانِ، وهذا مِنَ الألفاظِ الَّتي تُطْلَقُ على نَفْيِ الشَّيْءِ، ويُرَادُ نَفْيُ كَمَالِهِ ومختارِهِ، كما يُقَالُ: لا عِلْمَ إلَّا ما نَفَعَ، ولا مَالَ إلَّا الإِبِلُ، ولا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ، ودلالةُ الحديثِ على زِيادةِ الإيمانِ ونُقْصَانِهِ ظاهرةٌ، فالمُؤْمِنُ قَدْ يَرْتَكِبُ هذِهِ المعاصِيَ؛ فينقصُ إيمانُهُ، فيكونُ مُؤمنًا ناقِصَ الإيمانِ(٢)، فإذا تاب وأَقْلَعَ عَنْ هذِهِ المَعَاصِي؛ زاد إيمانُهُ. وَقَدِ احْتَجَّ جماعةٌ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ بهذا الحديثِ على زِيادةِ الإيمانِ ونُقْصَانِهِ، مِنْهُمْ إمامُ أَهْلِ السُّنَّةِ أحمدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَحِمَهُ اللهُ.

قال إسحاقُ بْنُ إبراهيمَ: سألتُ أبا عَبْدِ اللهِ عَنِ الإيمانِ ونُقْصَانِهِ.

قال: نُقْصَانُهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: «لا يَزْنِي الزاني حِينَ يَزْنِي وهُوَ مُؤْمِنٌ، ولا يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(٣).

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧).

(٢) إذا قيل: الإيمانُ المُطْلَقُ فمعناه: الكاملُ، بمعنى: أنَّه يَشْمَلُ فِعْلَ جميع الواجباتِ والمُستحبَّاتِ، وتَرْكَ جميع المُحرَّماتِ مَعَ المكْرُوهاتِ. وإذا قِيلَ: مُطْلَقُ الإيمانِ فمعناهُ: النَّاقصُ.

(٣) رواه الخلَّالُ في «السُّنَّة» (١٥٤٥)، وابن هاني في «مسائله» (٢/ ١٦٤)، وأمَّا الحديثُ فَقَدْ تقدَّم تخريجُهُ.

وقال المَرُّوذِيُّ: سَمِعْتُ أبا عَبْدِ اللهِ يَقُولُ: «الإيمانُ قَوْلٌ وَعمَلٌ، يَزِيدُ ويَنْقُصُ».

وقال: «الزِّيادةُ مِنَ العَمَلِ، وذكر النُّقْصانَ إذا زَنَىٰ وسَرَقَ»(١).

وقال عبدُ اللهِ بْنُ الإمامِ أحمدَ: سَمِعْتُ أبي رَحِمَهُ اللهُ وسُئِلَ عَنِ الإرجاءِ فقال: «نَحْنُ نَقُولُ: الإيمانُ قَوْلٌ وعَمَلٌ، يَزِيدُ ويَنْقُصُ، إذا زَنَىٰ وشَرِبَ الخَمْرَ، نَقَصَ إيمانُهُ»(٢).

(١) رواه الخلَّالُ في «السُّنَّة» (١٠٣٥)، وابْنُ بطَّةَ في «الإنابة» (١١٤٥).

(٢) «السُّنَّة» لعبدِ اللهِ (١/ ٣٠٧).

الحديثُ الثَّالِثُ والعِشْرُون

لا يعلمُ الغيبَ إلَّا اللهُ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الغَيْبِ خَمْسٌ - لا يَعْلَمُهَا إلَّا اللهُ -: لا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إلَّا اللهُ، وَلا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إلَّا اللهُ، وَلا يَعْلَمُ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعَةُ إلَّا اللهُ»(١).

وفي روايةٍ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾(٢).

الشَّرْحُ:

قال مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ النَّجْدِيُّ رحمه الله: «هذا الحديثُ الشَّريفُ رَدٌّ على مَنْ يَدَّعي عِلْمَ الغَيْبِ مِنَ الكَهَنَةِ والسَّحَرةِ»(٣).

قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «قال قَتَادَةُ: أَشْيَاءُ استأثر اللهُ بِهِنَّ؛ فَلَمْ يُطْلِعْ عَلَيْهِنَّ مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نبيًّا مُرْسلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فلا يَدْرِي أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَتَىٰ تَقُومُ السَّاعةُ في أَيِّ سَنَةٍ، أو في أَيِّ شَهْرٍ، أو لَيْلٍ أَوْ نَهارٍ، ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فلا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَتَىٰ يَنزِلُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٩٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٥٠٠)، وجاء عِنْدَ مُسْلِمٍ نَحْوُهُ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ (٩).

(٣) «أصول الإيمان» لمحمَّدِ بْنِ سُلَيمانَ النَّجْدِيِّ (٣٧).

الغَيثُ لَيلًا أوْ نهارًا، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ فلا يَعْلَمُ أحَدٌ ما في الأرحام، أذَكَرٌ أم أُنثَى، أحْمَرُ أوْ أسْوَدُ، وما هُوَ؟، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أنَفْسٌ أخيرٌ أم شَرٌّ، ولا تَدْري - يا بن آدَمَ - مَتَىٰ تَمُوتُ، لعلَّكَ المَيِّتُ غدًا، لعلَّكَ المُصَابُ غدًا»[١].

قال الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الشيخُ أبُو مُحَمَّدِ بْنُ أبي جمرةَ: عبَّر بالمَفَاتِحِ لتَقْرِيبِ الأمْرِ علىٰ السَّامِعِ؛ لأنَّ كُلَّ شَيْءٍ جُعِلَ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ حِجَابٌ فَقَدْ غُيِّبَ عَنْكَ، والتَّوصُّلُ إلىٰ مَعْرِفَتِهِ في العادةِ مِنَ البابِ، فإذا أُغْلِقَ البابُ، احْتِيجَ إلىٰ المِفْتَاحِ، فإذا كان الشَّيْءُ الَّذي لا يَطَّلِعُ علىٰ الغَيْبِ إلَّا بتوصيلِهِ لا يَعْرِفُ مَوْضِعَهُ، فكيف يَعْرِفُ المَغِيبَ؟»[٢].

وقال ابْنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ لا يَعْلَمُ ما في الأرحام إلَّا اللهُ، والأجِنَّةُ الَّتي في الأَرْحَامِ لها أحْوالٌ: مِنْهَا ما يُعْلَمُ إذا وُجِدَ - وَلَوْ كان الإنسانُ في بَطْنِ أُمِّهِ -، ومِنْهَا ما لا يُعْلَمُ أبَدًا، فَكَوْنُهُ ذَكَرًا أوْ أُنْثَىٰ يُعْلَمُ وَهُوَ في بَطْنِ أُمِّهِ، ولكنَّهُ لا يُعْلَمُ إلَّا إذا خَلَقَ اللهُ - تعالىٰ - فِيهِ علاماتِ الذُّكُورةِ، أوْ علاماتِ الأُنُوثةِ.

وَأمَّا مَتَىٰ يُولَدُ، وهَلْ يُولَدُ حَيًّا أو مَيِّتًا، وهَلْ يَبْقَىٰ في الدُّنْيا طَوِيلًا، أوْ لا يَبْقَىٰ إلَّا مُدَّةً قَصِيرةً، وهَلْ يَكُونُ عَمَلُهُ صالحًا، أو عَمَلُهُ سَيِّئًا، وهَلْ يُخْتَمُ لَهُ بالسَّعادةِ أوْ بالشَّقاوةِ، وَهَلْ يُبْسَطُ لَهُ في الرِّزْقِ، أوْ يُقْدَرُ عَلَيْهِ رِزْقُهُ[٣] - فَكُلُّ هذا لا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ»[٤].

وقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حتَّىٰ الذُّكورةُ والأُنُوثةُ لا يَعْلَمُونَها إلَّا بَعْدَ أنْ يَكُونَ ذَكَرًا أوْ أُنثَىٰ، أمَّا

(١) «تفسير سورة لقمان» (٣/ ١٥٥).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٥١٤).

(٣) يُقْدَرُ عليه رِزْقُهُ أيْ: يُضَيَّقُ عليه في رِزْقِهِ.

(٤) «شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ» (٣/ ١٤١).

قَبْلُ ما يعلمون؛ لأنّه لَمّا كان نُطْفَةً لا يَعْلَمُونَهُ حسبَ عِلْمِنا إلىٰ الآن لا يعلمون، إنَّما يعلمون بَعْدَ أنْ يُخلَقَ، وإذا خُلِقَ صار مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ لا مِنْ عَالَمِ الغَيْبِ؛ لكنّهُ عالَمٌ مِنْ عالَمِ الشَّهادةِ المَحْجُوبة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦]؛ لكنْ لو نُزيلُ هذِهِ الظُّلُماتِ الثّلاث، عَلِمْنا بِهِ أَمْ لا؟ عَلِمْنا بِهِ وشاهدناه.

إذًا فهو بَعْدَ التَّخليقِ مِنْ عالمِ الشَّهادةِ المحجوبةِ، لولا هذِهِ الحُجُبُ لَعَلِمْنا بِهِ، فإذا وُجِدَتْ أجْهزةٌ تنفذُ مِنْ هذِهِ الحُجُبِ، فلا مانعَ أنْ يُعلَمَ أنه ذكرٌ أوْ أُنثىٰ»[1].

---

(١) «مَجْلِسَاتٌ رمضانيَّةٌ» للعثيمين دروس صوتية مفرّغة رقم الدرس ٢٣.

الحديثُ الرّابعُ والعِشرُون

الاستعانةُ باللهِ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَىٰ أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ». ولغَيْرِ التِّرْمِذِيِّ: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ ما أَخْطَأَكَ لم يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وما أَصَابَكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»(١).

الشَّرْحُ:

قال ابْنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هَذَا الْحَدِيثُ يَتَضَمَّنُ وَصَايَا عَظِيمَةً، وَقَوَاعِدَ كُلِّيَّةً مِنْ أَهَمِّ أُمُورِ الدِّينِ، حَتَّىٰ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: تَدَبَّرْتُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَأَدْهَشَنِي وَكِدْتُ أَطِيشُ، فَوَا أَسَفًا مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَقِلَّةِ التَّفَهُّمِ لِمَعْنَاهُ»(٢).

فَقَوْلُهُ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ» أَيِ: احفظْ أوامرَهُ بالامتثالِ، ونواهِيَهُ بالِاجْتِنَابِ،

---

(١) (صحيح) أخرجه التِّرمِذِيُّ (٢٥١٦)، وقال: «هذا حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سُنَن التِّرمِذِيِّ» (٢٥١٦). وأخرج اللَّفظَ الثَّاني أحمدُ (١/ ٣٠٧)، والحديثُ قال عَنْهُ شيخُنا الوادعيُّ في «الصحيح المسند» (٦٨٥): صحيحٌ لغَيْرِهِ.

(٢) «جامعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٤٦٢).

وحُدُودَهُ بعَدَمِ تَعَدِّيها، «يَحْفَظْكَ»: في نَفْسِكَ، وَدِينِكَ، ومَالِكَ، ووَلَدِكَ، وفي جميع ما آتاكَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ(١).

وَقَوْلُهُ: «احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجاهَكَ - وَفِي رِوَايَةٍ: أَمَامَكَ -» مَعْنَاهُ: أَنَّ مَنْ حَفِظَ حُدُودَ اللهِ، وَرَاعَىٰ حُقُوقَهُ، وَجَدَ اللهَ مَعَهُ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، حَيْثُ تَوَجَّهَ يَحُوطُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيَحْفَظُهُ وَيُوَفِّقُهُ وَيُسَدِّدُهُ؛ فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨](٢).

إِذَا نَحْـنُ أَدْلَجْنَـا(٣) وَأَنْـتَ أَمَامَنَـا ... كَفَـى لِمَطَايَانَـا(٤) بِـذِكْرِكَ هَادِيَـا

وَقَوْلُهُ: «تَعَرَّفْ إِلَىٰ اللهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ» يَعْنِي: أَنَّ العَبْدَ إِذَا اتَّقَىٰ اللهَ، وَحَفِظَ حُدُودَهُ، وَرَاعَىٰ حُقُوقَهُ فِي حَالِ رَخَائِهِ - فَقَدْ تَعَرَّفَ بِذَلِكَ إِلَىٰ اللهِ، وَصَارَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ، فَعَرَفَهُ رَبُّهُ فِي الشِّدَّةِ، وَرَعَىٰ لَهُ تَعَرُّفَهُ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، فَنَجَّاهُ مِنَ الشَّدَائِدِ بِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، وَهَذِهِ مَعْرِفَةٌ خَاصَّةٌ، تَقْتَضِي قُرْبَ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ، وَمَحَبَّتَهُ لَهُ، وَإِجَابَتَهُ لِدُعَائِهِ(٥).

وَقَوْلُهُ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ»: هذا بَيْتُ القَصِيدِ، وَمِنْ أَجْلِهِ أوردتُ الحديثَ في بابِ العَقِيدةِ، فَهُوَ لَمْ يَقُلْ: فاسألني، أَوِ استعِنْ بي، فَقَصَرَ السُّؤالَ والاستعانةَ علىٰ اللهِ الَّذي لا يَسْتَحِقُّهُ سِوَاهُ، فَمَنْ صَرَفَ ذلك لغَيْرِ اللهِ، فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ ورَسُولَهُ، وأَشْرَكَ باللهِ.

---

(١) «الحقُّ الواضحُ المُبِينُ» (ص٦٠ - ٦١).

(٢) «جامعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٤٧١).

(٣) الإدلاج: سَيْرُ اللَّيلِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلىٰ آخِرِهِ.

(٤) المطايا: جَمْعُ مَطِيَّةٍ، وهي الدَّابَّةُ مُطْلَقًا.

(٥) «جامعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٤٨٢).

قال ابنُ رَجَبٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَنْ تَرَكَ الاسْتِعَانَةَ بِاللهِ، وَاسْتَعَانَ بِغَيْرِهِ، وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ مَنِ اسْتَعَانَ بِهِ؛ فَصَارَ مَخْذُولًا»[(١)].

قَوْلُهُ: «واعلمْ أنَّ ما أخطأَكَ لَمْ يَكُنْ ليُصِيبَكَ، وما أصابك لم يَكُنْ ليخطِئَكَ».

الْمُرَادُ: أَنَّ مَا يُصِيبُ الْعَبْدَ فِي دُنْيَاهُ مِمَّا يَضُرُّهُ أَوْ يَنْفَعُهُ، فَكُلُّهُ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ، وَلَا يُصِيبُ الْعَبْدَ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ مِنْ مَقَادِيرِ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ السَّابِقِ، وَلَوِ اجْتَهَدَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ جَمِيعًا[(٢)].

وَاعْلَمْ أَنَّ مَدَارَ جَمِيعِ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ عَلَىٰ هَذَا الْأَصْلِ، وَمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ، فَهُوَ مُتَفَرِّعٌ عَلَيْهِ، وَرَاجِعٌ إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَلِمَ أَنْ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَنَفْعٍ وَضُرٍّ، وَأَنَّ اجْتِهَادَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ عَلَىٰ خِلَافِ الْمَقْدُورِ غَيْرُ مُفِيدٍ الْبَتَّةَ - عَلِمَ حِينَئِذٍ أَنَّ اللهَ - وَحْدَهُ - هُوَ الضَّارُّ النَّافِعُ، الْمُعْطِي الْمَانِعُ؛ فَأَوْجَبَ ذَلِكَ لِلْعَبْدِ تَوْحِيدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِفْرَادَهُ بِالطَّاعَةِ، وَحِفْظَ حُدُودِهِ، فَإِنَّ الْمَعْبُودَ إِنَّمَا يَقْصِدُ بِعِبَادَتِهِ جَلْبَ الْمَنَافِعِ، وَدَفْعَ الْمَضَارِّ؛ وَلِهَذَا ذَمَّ اللهُ مَنْ يَعْبُدُ مَنْ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُغْنِي عَنْ عَابِدِهِ شَيْئًا، فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَلَا يُعْطِي وَلَا يَمْنَعُ غَيْرُ اللهِ، أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ إِفْرَادَهُ بِالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالْمَحَبَّةِ وَالسُّؤَالِ، وَالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ، وَتَقْدِيمِ طَاعَتِهِ عَلَىٰ طَاعَةِ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَأَنْ يَتَّقِيَ سُخْطَهُ، وَلَوْ كَانَ فِيهِ سُخْطُ الْخَلْقِ جَمِيعًا، وَإِفْرَادَهُ بِالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالسُّؤَالِ لَهُ، وَإِخْلَاصِ الدُّعَاءِ لَهُ فِي حَالِ الشِّدَّةِ وَحَالِ الرَّخَاءِ، بِخِلَافِ مَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ عَلَيْهِ مِنْ إِخْلَاصِ الدُّعَاءِ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَنِسْيَانِهِ

---

(١) «جامعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٤٧١ - ٤٧٢).

(٢) «جامعُ العُلُومِ والحِكَمِ» (١/ ٤٨٣).

فِي الرَّخَاءِ، وَدُعَاءِ مَنْ يَرْجُونَ نَفْعَهُ مِنْ دُونِهِ، قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [الزمر: ٣٨][(١)].

وَقَوْلُهُ: «رُفِعَتِ الأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» أَيْ: فُرِغَ مِنَ الأَمْرِ، وجَفَّتْ كتابتُهُ، فَلَمْ يُمْكِنْ أَنْ يُكْتَبَ فيها بَعْدَ ذلك تبديلٌ أو نَسْخٌ لما كُتِبَ مِنْ ذلك واسْتَقَرَّ؛ لأنَّها أمورٌ ثابتةٌ، لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ عمَّا هِيَ عَلَيْهِ، فذلك كِنَايَةٌ عَنْ تَقَدُّمِ كِتابةِ المَقَادِيرِ كُلِّها، والفَرَاغِ مِنْهَا مِنْ أَمَدٍ بَعِيدٍ، وهذا مِنْ أَحْسَنِ الكِنَايَاتِ وَأَبْلَغِهَا، وَقَدْ دَلَّ الكتابُ والسُّنَّةُ علىٰ ذلك، فَمَنْ عَلِمَ ذلك، وشَهِدَهُ بعَيْنِ بَصِيرتِهِ؛ هان عليه التَّوكُّلُ علىٰ خَالِقِهِ، والإعراضُ عمَّا سِوَاهُ[(٢)].

وَقَوْلُهُ: «واعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا»: فِي هذِهِ الجُمَلِ الثَّلَاثِ بيانُ حُصُولِ النَّصْرِ مَعَ الصَّبْرِ، والفَرَجِ مَعَ الكَرْبِ، واليُسْرِ مَعَ العُسْرِ، وأَنَّ الصَّبْرَ يَنْتُجُ عَنْهُ النَّصْرُ بإذْنِ اللهِ، وأَنَّ الكَرْبَ والشِّدَّةَ يَكْشِفُها اللهُ بالفَرَجِ الَّذي يَعْقُبُها، وأَنَّ العُسْرَ يَعْقُبُهُ اليُسْرُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ[(٣)].

---

(١) «جامعُ العُلُوم والحِكَم» (١/ ٤٨٤ - ٤٨٥).

(٢) «دليل الفالحين» (١/ ٢٣٦).

(٣) «فتح القَوِيِّ المَتِين» (٧١ - ٧٢).

الحَدِيثُ الخَامِسُ والعِشْرُونَ

الخَوْفُ والرَّجَاءُ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَىٰ شَابٍّ وَهُوَ فِي المَوتِ، فقال: «كَيفَ تَجِدُكَ؟». قال: أَرْجُو اللهَ يا رَسُولَ اللهِ، وإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي. فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هذا المَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو مِنْهُ، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ» أَيْ: فِي سَكَرَاتِهِ. «فَقَالَ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟» أَيْ: أَطَيِّبًا أَمْ مَغْمُومًا؟، قَالَهُ الزَّيْنُ، وَقَالَ ابْنُ الْمَلَكِ: أَيْ: كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ - أَوْ نَفْسَكَ - فِي التَّنَقَالِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَىٰ الْآخِرَةِ، أَرَاجِيًا رَحْمَةَ اللهِ، أَوْ خَائِفًا مِنْ غَضَبِ اللهِ؟ «قَالَ: أَرْجُو اللهَ» أَيْ: أَجِدُنِي أَرْجُو رَحْمَتَهُ. «يَا رَسُولَ اللهِ، وَإِنِّي» أَيْ: مَعَ هَذَا. «أَخَافُ ذُنُوبِي» قَالَ الطِّيبِيُّ: عَلَّقَ الرَّجَاءَ بِاللهِ، وَالْخَوْفَ بِالذَّنْبِ، وَأَشَارَ بِالْفِعْلِيَّةِ إِلَىٰ أَنَّ الرَّجَاءَ حَدَثَ عِنْدَ السِّيَاقِ، وَبِالِاسْمِيَّةِ وَالتَّأْكِيدِ إِلَىٰ أَنَّ خَوْفَهُ كَانَ مُسْتَمِرًّا مُحَقَّقًا. «فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ» أَيْ: مِنْ عِبَادِ اللهِ. «فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ» أَيْ: فِي هَذَا الْوَقْتِ، وَهُوَ زَمَانُ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ وَمِثْلُهُ كَانَ زَمَانٌ يُشْرِفُ عَلَىٰ الْمَوْتِ حَقِيقَةً أَوْ حُكْمًا: كَوَقْتِ الْمُبَارَزَةِ، وَزَمَانِ الْقِصَاصِ وَنَحْوِهِمَا. «إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو» أَيْ: مِنَ الرَّحْمَةِ. «وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ» أَيْ: مِنَ الْعُقُوبَةِ بِالْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ(٢).

---

(١) (حسن) أخرجه التِّرمِذِيُّ (٩٨٣)، وذكره الألبانيُّ في «الصَّحيحة» (١٠٥١).

(٢) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٣/ ١١٦٣) للقاري باختصارٍ يسيرٍ.

وقال ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمنُ يَنبَغِي أَنْ يَسعَىٰ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - بَيْنَ الخَوْفِ والرَّجاءِ، ويُغَلِّبَ الرَّجاءَ في جانبِ الطَّاعةِ؛ لِيَنْشَطَ عليها، ويُؤَمِّلَ قَبولَها، ويُغَلِّبَ الخَوْفَ إذا هَمَّ بالمَعْصِيَةِ؛ لِيَهْرُبَ مِنْهَا، ويَنْجُوَ مِنْ عِقابِهَا.

وقال بَعْضُ العُلَماءِ: يُغَلِّبُ جانبَ الرَّجاءِ في حالِ المَرَضِ، وجانبَ الخَوْفِ في حالِ الصِّحَّةِ؛ لأنَّ المَرِيضَ مُنْكَسِرٌ ضَعِيفُ النَّفْسِ، وعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُ، فيموتَ وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللهِ عَزَّوَجَلَّ، وفي حالِ الصِّحَّةِ يَكُونُ نَشِيطًا مُؤَمِّلًا طُولَ البَقَاءِ، فَيَحْمِلُهُ ذلك علىٰ الأَشَرِ والبَطَرِ، فَيُغَلِّبُ جانبَ الخَوْفِ؛ لِيَسْلَمَ مِنْ ذلك.

وَقِيلَ: يَكُونُ رَجاؤُهُ وخَوْفُهُ واحِدًا سَوَاءً؛ لئلَّا يَحْمِلَهُ الرَّجاءُ علىٰ الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والخَوْفُ علىٰ اليَأْسِ مِنْ رحمةِ اللهِ، وكِلَاهُمَا قَبِيحٌ مُهْلِكٌ لِصَاحِبِهِ»[1].

---

(١) «شَرْحُ الثَّلاثةِ الأُصولِ» (٦٠).

الحديث السادس والعشرون

التوسُّل

عَنْ أَنَسِ بْنِ مالكٍ ﷺ: أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ كَانَ إِذَا قَحَطُوا، اسْتَسْقَىٰ بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ، إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا». قَالَ: فَيُسْقَوْنَ(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا» أَيْ: أَنَّهم كانوا يتوسَّلُونَ إِلَىٰ اللهِ - تعالىٰ - بدُعَاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فيسقيهمُ اللهُ، دلَّ علىٰ ذلك حديثُ أنسٍ قَالَ: «بَيْنَما النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، إِذْ قَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكَ الْكُرَاعُ(٢)، وَهَلَكَ الشَّاءُ؛ فَادْعُ اللهَ أَنْ يَسْقِيَنَا، فَمَدَّ يَدَيْهِ وَدَعَا»(٣).

فهذا كان توسُّلُهُمْ بِهِ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - في حياتِهِ، فَقَدْ كانوا يتوسَّلُون بدُعَائِهِ، ويَسْتَشْفِعُونَ بِهِ، أمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَلَمْ يَكُونوا يتوسَّلون به، كما كانوا يَفْعَلُونَ في حَيَاتِهِ، ولكنَّهُمْ يتوسَّلون بدُعَاءِ الأحياءِ، دلَّ علىٰ ذلك قَوْلُهُ: «وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ.» أَيْ: إِنَّا نتوسَّلُ إليك بدُعَاءِ عَمِّ نبيِّنا لقَرابتِهِ مِنْ نبيِّنا، ومعنىٰ كلامِ عُمَرَ: أَنَّا كُنَّا نَقْصِدُ نبيَّنَا، ونَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَنَا، ونتقرَّبُ إِلَىٰ اللهِ

(١) رواه البخاريُّ (١٠١٠).

(٢) الكُراع - بضمِّ الكافِ -: اسمٌ لجميعِ الخَيْلِ.

(٣) رواه البخاريُّ (٨٨٠).

بدُعائِهِ، والآنَ بَعْدَ وفاتِهِ لَمْ يَعُدْ ذلك مُمْكنًا؛ فإنَّنا نتوجَّهُ إلىٰ عَمِّ نبيِّنا العَبَّاسِ، وَنطلُبُ مِنْهُ أنْ يَدْعُوَ لنا. وَلَيْسَ المَعْنَىٰ: أنَّهم كانوا يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ بجاهِ نبيِّكَ اسْقِنَا، فصاروا بَعْدَ مَوْتِهِ يَقُولُونَ: بِجاهِ العَبَّاسِ اسْقِنَا؛ بَلْ هذا بِدْعَةٌ؛ لَمْ يَفْعَلْهُ أحَدٌ مِنَ السَّلَفِ الصَّالحِ - رِضْوانُ اللهِ عليهِمْ -.

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ بابَ التَّوسُّلِ ضَلَّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ فيحتاجُ إلىٰ بَيَانِ ما يُشْرَعُ مِنْهُ وما يُمْنَعُ.

١- التَّوسُّلُ المَشْرُوعُ:

التَّوسُّلُ إلىٰ اللهِ ﷻ عِنْدَ الدُّعاءِ يَنْقَسِمُ إلىٰ قِسْمَيْنِ: جائِزٍ، وممنوعٍ، فللجائزُ سَبْعَةُ أنواعٍ:

النَّوعُ الأوَّلُ: التَّوسُّلُ إلىٰ اللهِ بأسمائِهِ: كحديثِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أسألُكَ بكُلِّ اسمٍ هُوَ لَكَ...» إلىٰ أنْ قَالَ: «أنْ تَجْعَلَ القُرآنَ العظيمَ رَبِيعَ قَلْبِي». ومثالُ التَّوسُّلِ باسْمٍ مُعيَّنٍ: أسألُك - يا رَحْمَنُ - أنْ تَرْحَمَنِي، وهُنَا يتوسَّلُ الإنسانُ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - باسمٍ مُناسِبٍ لمَطْلُوبِهِ، فإذا كان يُرِيدُ أنْ يَسْألَ اللهَ المَغْفِرَةَ فَلْيَقُلْ: يا غَفُورُ، وإذا كان يُرِيدُ الرَّحْمَةَ يَقُولُ: يا رحمن، فيكونُ الاسمُ مُناسبًا للمَطْلُوبِ، هذا واحدٌ.

الثَّاني: التَّوسُّلُ إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - بصِفَاتِهِ: كحديثِ الاستخارةِ: «اللَّهُمَّ، إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وأَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتِكَ...» إلخ. وَمِثْلُهُ: «اللَّهُمَّ، بِعِلْمِكَ الغَيْبَ، وقُدْرَتِكَ علىٰ الخَلْقِ، أَحْيِنِي ما عَلِمْتَ الحياةَ خَيْرًا لِي».

الثَّالِثُ: التَّوسُّلُ إلىٰ اللهِ بأفْعَالِهِ، دليلُهُ ومثالُهُ - أيضًا -: قَوْلُنا في الصَّلاةِ علىٰ النَّبيِّ - صلىٰ الله عليه وعلىٰ آلِهِ وصَحْبِهِ وسلَّمَ -: «اللَّهُمَّ، صَلِّ علىٰ مُحَمَّدٍ، وعلىٰ آلِ مُحمَّدٍ» هذا دُعاءٌ، التَّوسُّلُ: «كما صلَّيْتَ علىٰ إبراهيمَ، وعلىٰ آلِ إبراهيمَ، إنَّكَ

حَمِيدٌ مَجِيدٌ»؛ ولهذا نُعْرِبُ الكاف هُنَا: حَرْفَ تَعْلِيلٍ لا تَشْبِيهٍ، وَحِينَئِذٍ لا نَحْتَاجُ إِلَىٰ الإشكالاتِ الَّتِي أَوْرَدَهَا بَعْضُ العُلَماءِ، وقال: كَيْفَ تُشَبَّهُ الصَّلاةَ علىٰ النَّبِيِّ ﷺ بالصَّلاةِ علىٰ إبراهيمَ وآلِهِ، مَعَ أَنَّ مُحَمَّدًا أَفْضَلُ؟ نَقُولُ: لا حاجةَ لهذا؛ لأَنَّ الكافَ هُنَا لَيْسَتْ للتَّشْبِيهِ، بَلْ هِيَ للتَّعليلِ، ولهذا جَعَلْنَاها تَوَسُّلًا.

الرَّابعُ: التَّوسُّلُ بالإيمانِ باللهِ، دليلُهُ ومِثالُهُ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٦].

الخامِسُ: التَّوسُّلُ بالأعمالِ الصَّالحةِ، مثالُهُ ودليلُهُ: قِصَّةُ أصحابِ الغَارِ: ثلاثةٌ دَخَلُوا في غارٍ، ثُمَّ انطبقتْ عليهِمُ الصَّخرةُ، لا يستطيعون إزالَتَها وزَحْزَحَتَها، فتوسَّلُوا إلىٰ اللهِ - تعالىٰ - بصالحِ أَعْمَالِهِمْ(١).

سادسًا: التَّوسُّلُ بدُعَاءِ الرَّجُلِ الصَّالحِ: أَنْ تَطْلُبَ مِنْهُ الدُّعاءَ، مِثالُهُ ودَلِيلُهُ: تَوَسُّلُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ بدُعَاءِ العبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وكذلك تَوَسُّلُ الصَّحابة بِدُعَاءِ الرَّسُولِ ﷺ.

سابعًا: التَّوسُّلُ باتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾ [آل عمران: ٥٣].

ثامنًا: التَّوسُّلُ بحالِ السَّائلِ، بمعنىٰ: أَنْ يَذْكُرَ الإنسانُ حَالَهُ، يتوسَّلُ بِهَا، ويَسْتَعْطِفُ بِهَا رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، كقول موسىٰ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝٢٤﴾ [القصص: ٢٤] وَقَدْ جُمِعَ هذا مَعَ أنواعٍ أُخْرَىٰ فيما عَلَّمَهُ الرَّسُولُ - صلىٰ الله عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّم - أبا بَكْرٍ

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

ﷺ حِينَمَا قال: يا رَسُولَ اللهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي. قال: «قُلِ: اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(١). هذا فِيهِ: التَّوسُّلُ بحالِ السَّائِلِ، والتَّوسُّلُ بصفةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، والتَّوسُّلُ بأسماءِ اللهِ، فَأَيْنَ هِيَ حالُ السَّائِلِ؟، قَوْلُهُ: «اللَّهُمَّ، إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا»، وأَيْنَ الصِّفَةُ مِنْ صِفَاتِ اللهِ؟، قَوْلُهُ: «ولا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»؛ لأَنَّ المَغْفِرَةَ صِفَةٌ، وأَيْنَ أَسْمَاءُ اللهِ؟، قَوْلُهُ: «إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ». قَوْلُنا: التَّوسُّلُ بدُعَاءِ الرَّجُلِ الصَّالحِ، نَحْنُ نَعْلَمُ كُلُّنا أَنَّ المُرادَ: الرَّجُلُ الصَّالحُ الحَيُّ الَّذِي تَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ، وَلَيْسَ المُرَادُ التَّوسُّلَ بدُعَاءِ المَيِّتِ؛ وذلك أَنَّ المَيِّتَ لا يَبْلُغُهُ، إِذْ أَنَّ عَمَلَهُ قَدِ انْقَطَعَ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ – صلىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّمَ –: «إِذا مات الإنسانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثلاثٍ: صَدَقَةٍ جارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صالحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢)؛ ولهذا لا يَجُوزُ أَنْ تَقِفَ علىٰ قَبْرِ النَّبِيِّ – صلىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّم – فَتَقُولَ: يا رسولَ اللهِ، اشْفَعْ لي؛ لأَنَّهُ لا يَمْلِكُ هذا، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَدْعُوَ لَكَ بالشَّفاعةِ؛ فَهُوَ لا يَمْلِكُ أَنْ يشفعَ، ولا يَمْلِكُ أَنْ يَدْعُوَ بالشَّفاعةِ وَهُوَ مَيِّتٌ، ودليلُ هذا قَوْلُ اللهِ – تبارك وتعالىٰ –: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. يعني: لا أَحَدَ يَشْفَعُ عِنْدَ اللهِ إِلَّا بإذنِ اللهِ، أَمَّا كَوْنُهُ لا يَمْلِكُ أَنْ يشفعَ فِي حالِ مَوْتِهِ؛ فَلِقَوْلِهِ – صلىٰ الله عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّم –: «إِذا مات الإنسانُ، انْقَطَعَ عَمَلُهُ»، وَمِنَ العَمَلِ الدُّعَاءُ، فالدُّعاءُ عِبادةٌ، ولا يُمْكِنُ لرسولِ اللهِ – صلىٰ الله عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّم – أَنْ يَدْعُوَ لأحدٍ بالشَّفاعةِ بَعْدَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٨٣٤).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

مَوْتِهِ، وأقْرَبُ طَرِيقٍ تَحْصُلُ بِهِ علىٰ شفاعةِ الرَّسُولِ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - أنْ تُخلِصَ التَّوحيدَ للهِ؛ ولهذا قال أبو هُرَيْرَةَ: يا رسولَ اللهِ، مَنْ أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعتِكَ؟ ماذا قال؟، قال: «مَنْ قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»[1]. هذا أسْعَدُ النَّاسِ بشفاعةِ الرَّسُولِ، فإذا كُنْتَ تُرِيدُ شَفاعةَ الرَّسُولِ - صلىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وسلَّم -، فَقُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ خالصًا مِنْ قَلْبِكَ، وأنْتَ مَتَىٰ قُلْتَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصًا مِنْ قَلْبِكَ، فَسَوْفَ تَقُومُ بما تَقْتَضِيهِ هذِهِ الشَّهادةُ العَظِيمةُ ألَا وَهُوَ عبادةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٢- التَّوَسُّلُ المَمْنُوعُ:

أمَّا التَّوَسُّلُ المَمْنُوعُ: فَهُوَ أنْ يتوسَّلَ الإنسانُ بما لَمْ يَجْعَلْهُ اللهُ وسيلةً، مِثْلُ: أنْ تتوسَّلَ بجاهِ الرَّسُولِ، وجاهُ الرَّسُولِ يَعْني: المنزلةَ الَّتي لَهُ عِنْدَ اللهِ، ونَحْنُ نَشْهَدُ ونُؤْمِنُ بأنَّ أعظمَ النَّاسِ جاهًا هُوَ الرَّسُولُ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، فإذا كان مُوسىٰ ﷺ وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ، وإذا كان عِيسىٰ وَجِيهًا في الدُّنيا والآخِرَةِ - فإنَّ مُحمَّدًا ﷺ أولىٰ بذلك بلا شَكٍّ، ولكنْ ماذا تَنفَعُني وَجَاهتُهُ عِنْدَ اللهِ؟ لا تَنْفَعُني؛ لأنَّ وَجَاهتَهُ عِنْدَ اللهِ إنَّما هِيَ مَنْزِلَةٌ جَعَلَها اللهُ لَهُ، أيْ: لِنَفْسِ الرَّسُولِ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، فهو لا يَنْفَعُني؛ ولهذا نَقُولُ: مَنْ توسَّلَ إلىٰ اللهِ بجاهِ الرَّسُولِ، فَقَدْ شَبَّهَ اللهَ بخَلْقِهِ، لماذا؟؛ لأنه لا يُتَوَسَّلُ بِالْجَاهِ إلَّا لَدَىٰ المَخْلُوقِينَ، أنا - مَثَلًا - أجِدُ هذا الرَّجُلَ لَهُ منزلةٌ عِنْدَ شَخْصٍ مِنَ النَّاسِ، وأقُولُ: أتوسَّلُ إلَيْكَ بجَاهِ فُلَانٍ، أو أسألُكَ بجاهِ فُلَانٍ للرَّجُلِ، أمَّا عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فلا، لا تنفعُ الوَجَاهةُ إلَّا مَنْ جَعَلَها اللهُ لَهُ، أمَّا بالنِّسبةِ لغَيْرِهِ فلا تنفعُهُ؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ وَهُوَ يُنَادِي الأقْرَبِينَ مِنْ أقَارِبِهِ: «يا فاطمةُ بِنْتَ مُحمَّدٍ، لا

---

(١) رواه البخاريُّ (٩٩).

أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١). وفاطمةُ بِضْعَةٌ مِنْهُ، وَمَعَ ذلك لا يُغْنِي عنها مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَلَوْ كان الرَّسُولُ وَجِيهًا عِنْدَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فإنَّهُ لا يُغْنِي شَيْئًا عِنْدَ اللهِ.

وَمِنَ الشَّفاعةِ المَمْنُوعَةِ: ما ادَّعَاهُ المُشْرِكُونَ مِن قَوْلِهِمْ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣]. فَهُمْ يَدَّعُونَ أَنَّهم يَعْبُدُونَ الأصنامَ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُقَرِّبَهُمْ إِلىٰ اللهِ - سبحان اللهِ! -، هَلْ هذا يُقَرِّبُ إِلىٰ اللهِ أَوْ يُبَعِّدُ؟، يُبَعِّدُ مِنَ اللهِ، ولا يُمْكِنُ أَنْ تَتقرَّبَ إِلىٰ اللهِ بمعصيتِهِ إطْلاقًا؛ ولهذا لَوْ أَنَّ إنسانًا أراد أَنْ يَقُومَ ويُصَلِّي بَعْدَ صلاةِ العَصْرِ نَفْلًا مُطْلَقًا لا سَبَبَ لَهُ، هَلْ هذا يُقَرِّبُ إِلىٰ اللهِ؟، لا يُقَرِّبُ إِلىٰ اللهِ؛ لأنَّهُ مُحَرَّمٌ؛ مَعَ أَنَّها صلاةُ عِبادةٍ، يَقُومُ الإنسانُ فيها للهِ عَزَّوَجَلَّ، يُكَبِّرُ اللهَ، ويَتْلُو كِتابَهُ، ويَرْكَعُ ويَسْجُدُ، وَمَعَ ذلك نَقُولُ: هذا الرَّجُلُ لا تُقَرِّبُهُ صلاتُهُ للهِ؛ لأنَّها مَعْصِيةٌ، فلا يُمْكِنُ أَنْ يتقرَّبَ الإنسانُ إِلىٰ اللهِ بمعصيةٍ إطلاقًا، فهؤلاءِ المُشْرِكُونَ الَّذين يَقُولُونَ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمر: ٣]، نَقُولُ: هؤلاءِ ضالُّونَ؛ لأنَّ عبادةَ الأصنامِ لا تُقَرِّبُ إِلىٰ اللهِ، بَلْ تُبَعِّدُ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ(٢).

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦).

(٢) «جلسات وفتاوى» لابن عثيمين (٨/ ٣٩ - ٤٣) باختِصارٍ يَسِيرٍ.

الحديثُ السَّابعُ والعِشْرُونَ

الوَلَاءُ لأَهْلِ الحَقِّ، والبَرَاءَةُ مِنْ أَهْلِ البَاطِلِ

وعن أبي عَبْدِ اللهِ عَمْرِو بْنِ العاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: «إِنَّ آلَ أَبِي فُلَانٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ المُؤْمِنِينَ، وَلَكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّهَا بِبَلَالِهَا»(١).

الشَّرْحُ:

قَالَ النَّوَوِيُّ: «معنىٰ الحَدِيثِ: أَنَّ وَلِيِّي مَنْ كَانَ صَالِحًا، وَإِنْ بَعُدَ نَسَبُهُ مِنِّي، وَلَيْسَ وَلِيِّي مَن كَانَ غَيْرَ صَالِحٍ، وَإِنْ قَرُبَ نَسَبُهُ مِنِّي»(٢).

وقال ابنُ العَرَبِيِّ: «ومَعْنَاهُ: أَنِّي لَسْتُ أَخُصُّ قَرَابَتِي، ولا فَصِيلَتِي الأَدْنَيْنَ بولايةٍ دُونَ المُسْلِمِينَ، وَأَمَّا رَحِمُهُمْ - يَعْنِي: من المطالبةِ - فسأبلُّها بِبَلَالِها أيْ: أُعْطِيها حقَّها؛ فإِنَّ المَنْعَ عِنْدَ العَرَبِ يُبْسٌ، والصِّلَةَ بَلٌّ»(٣).

قُلْتُ: هذا الحديثُ قاعدةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الوَلَاءِ للمُؤْمنينَ، والبَرَاءةِ مِنَ الكافرينَ، ولا شَكَّ أَنَّ الوَلَاءَ والبَرَاءَ مَبْنِيَّانِ علىٰ قاعدةِ: الحُبِّ والبُغْضِ، أَوِ المُوَالاةِ والمُعَاداةِ.

وتكونُ علىٰ ثلاثةِ أَوْجُهٍ:

١- مَنْ يُحِبُّ محبَّةً كاملةً: وهذِهِ المحبةُ للمُؤْمنينَ المُتَّقِينَ: مِنَ الأنبياءِ والمُرْسَلِينَ،

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٠) واللَّفظُ لَهُ، ومسلم (٢١٥)، (٣٦٦).

(٢) «عمدة القاري» (٢٢/ ٩٥).

(٣) انظر «التنقيح» (٣/ ١١٥٣).

وعبادِ اللهِ المُحْسِنينَ القائمينَ بجميعِ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ، المُبْتَعِدِينَ عَنْ جَمِيعِ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ.

٢- مَنْ يُحِبُّ مِنْ وَجْهٍ، ويَكْرَهُ مِنْ وَجْهٍ؛ لأَنَّهُ قَدْ يَجْتَمِعُ فِي المُؤْمِنِ ولايةٌ مِنْ وَجْهٍ، وعداوةٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، وهذا هُوَ المُسْلِمُ الَّذي خَلَطَ عَمَلًا صالحًا وآخَرَ سَيِّئًا، فيحبُّ ويُوالي علىٰ قَدْرِ ما مَعَهُ مِنَ الخَيْرِ، ويُبْغِضُ ويُعَادِي علىٰ قَدْرِ ما مَعَهُ مِنَ الشَّرِّ.

٣- مَنْ يُبْغِضُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ: وَهُوَ مَنْ كَفَرَ باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فَيَجِبُ بُغْضُهُ بالقَلْبِ كاملًا لازمًا لا نَقْصَ فِيهِ، أَمَّ بالبَدَنِ والأعمالِ فَعَلَىٰ حسبِ القُدْرَةِ، ومتىٰ كانتْ إرادةُ القَلْبِ وكراهتُهُ كاملةً لا نَقْصَ فيها، وفِعْلُ العَبْدِ مَعَها بحسبِ قُدْرَتِهِ - فإنَّهُ يُعْطَىٰ ثَوَابَ الفِعْلِ الكاملِ إنْ شاءَ اللهُ - تعالىٰ -.

وذَكَرَ بَعْضُ العُلَماءِ أنَّ مُوالاةَ الكُفَّارِ علىٰ نَوْعَيْنِ:

١- مُوَالاةٍ صُغْرَىٰ: لا تُخْرِجُ مِنَ الإسلامِ، بَلْ هِيَ مُحَرَّمةٌ، وَمِنْ صُوَرِهَا: التَّعَصُّبُ للكافِرِ؛ لأنَّهُ مِنْ أَبْنَاءِ الوَطَنِ؛ أَوِ الحِزْبِ، أَوِ الشراكةِ، ومُوَالاتُهُ فِي تِلْكَ المصلحةِ، مَعَ بُغْضِهِ دِيانةً.

قال ابنُ تَيْمِيَّةَ: «قَدْ تَحْصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّتُهُمْ لِرَحِمٍ أَوْ حَاجَةٍ، فَتَكُونُ ذَنْبًا، ولا يكونُ بِهِ كافرًا»(١).

٢- مُوَالاةٍ كُبْرَىٰ: تُخْرِجُ مِنَ الإسلامِ: وهي مَوَدَّةُ الكُفَّارِ مِنْ أَجْلِ دِينِهِمْ، وَمَحَبَّتُهُمْ بالقَلْبِ دِيَانَةً، وَقَدْ يتمنَّىٰ نُصْرَتَهُمْ علىٰ المُسْلِمينَ، قال الله ﷻ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) «الفتاوى» (٧/ ٥٢٣).

الحديث الثامن والعشرون

التحذير من الجلوس مع المبتدعة وجدالهم

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ إِنْ مَرِضُوا فَلا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلا تَشْهَدُوهُمْ»(١).

الشَّرْحُ:

القَدَرِيَّةُ: هُمْ نُفَاةُ القَدَرِ، فيقولون: إنَّ العَبْدَ خَالِقٌ لِفِعْلِهِ، وإنَّ اللهَ عز وجل لَمْ يُقَدِّرْ عَلَيْهِ الشَّرَّ، وإنَّما العَبْدُ هُوَ الَّذي فَعَلَهُ، ويَقُولُونَ: إنَّ اللهَ - تعالىٰ - مُنَزَّهٌ عَنِ الفَحْشَاءِ فلا يُرِيدُها، ومَعْلُومٌ أنَّ الخَيْرَ والشَّرَّ كُلَّهُ مِنَ اللهِ عز وجل، وأنَّ كُلَّ ما يَقَعُ في الوُجُودِ مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ فَهُوَ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، ومَشِيئتِهِ وإرادتِهِ، وَقَدْ جاءَ في القُرآنِ الكريمِ نِسْبَةُ الهدايةِ والإضْلالِ إِلَيْهِ، وأنَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، ويُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وأنَّهُ لَوْ شاء لَهَدَىٰ النَّاسَ أجْمَعِينَ. ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فكُلُّ شَيْءٍ بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ، ولا يَقَعُ في مُلْكِ اللهِ إلَّا ما شَاءَهُ، فالقَدَرِيَّةُ: هُمْ نُفَاةُ القَدَرِ.

قَوْلُهُ: «مَجُوسُ هذِهِ الأُمَّةِ» أيْ: أنَّهُمْ يُشَابِهُونَ المَجُوسَ الَّذين جَعَلُوا للكَوْنِ خَالِقَيْنِ، وَهُمَا: النُّورُ، والظُّلْمَةُ، وأنَّ الخَيْرَ يَرْجِعُ إلىٰ النُّورِ، والشَّرَّ يَرْجِعُ إلىٰ الظُّلْمَةِ، فهؤلاءِ جَعَلُوا الخَيْرَ يَرْجِعُ إلىٰ اللهِ، والشَّرَّ يَرْجِعُ إلىٰ العِبَادِ، وأنَّ العِبَادَ هُمُ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ أفْعَالَهُمْ، واللهُ عز وجل يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، فهذِهِ الآيةُ

(١) (حَسَنٌ) أخرجه أبو دَاوُدَ (٤٦٩١)، وابنُ ماجَة (٩٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

عامَّةٌ لا يَخرُجُ عنهَا شيءٌ، فكُلُّ شيءٍ مَخلُوقٍ فَهُوَ مِنْ خَلْقِ اللهِ وإيجادِهِ، سواءٌ كان ذَاتًا أَوْ صِفَاتٍ، فالذَّوَاتُ مَخلُوقةٌ، والصِّفَاتُ - وَهِيَ الأعمالُ - مَخلُوقةٌ، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، فهو خالقُ العِبَادِ، وخالقُ أفْعَالِ العِبادِ، وَهِيَ كسبٌ لَهُمْ؛ فَيُحْمَدُونَ على حُسْنِهَا، ويُذَمُّونَ على سَيِّئِهَا، ويُثابُونَ على حُسْنِهَا، ويُعَاقَبُونَ على سَيِّئِهَا، فَتُضَافُ إليهِمْ باعتبارِ الكَسْبِ، وتُضَافُ إلى اللهِ ﷻ باعتبارِ الخَلْقِ والإيجادِ، فلا يَقعُ في مُلْكِ اللهِ شَيْءٌ لَمْ يُرِدْهُ اللهُ ﷻ. ويُذْكَرُ: أنَّ أعرابيًا سُرِقَتْ لَهُ حِمَارَةٌ، فَجَاءَ إلى عَمْرِو بْنِ عبيدٍ يَطْلُبُ مِنْهُ أنْ يَدْعُوَ اللهَ - تعالى - أنْ يَرُدَّهَا عَلَيْهِ، فقال: اللَّهُمَّ، إنَّكَ لَمْ تُرِدْ أنْ تُسْرَقَ، فسُرِقَتْ فارْدُدْهَا عَلَيْهِ. فقال الأعرابيُّ: لا حاجةَ لِي بِدُعَائِكَ؛ لأنَّهُ قَدْ يُرِيدُ رَدَّها فلا تُرَدُّ. فهذا الأعرابيُّ على الفِطْرَةِ؛ لذلك أنْكَرَ عَلَيْهِ هذِهِ المَقُولةَ[1].

قُلْتُ: هذا الحديثُ قاعدةٌ مِنَ القواعِدِ الَّتي يُسْتَدَلُّ بِهَا على هَجْرِ المُبْتَدِعَةِ، وعَدَمِ مُجَالَسَتِهِمْ، ولِهَجْرِ المُبْتَدِعَةِ فَوَائِدُ جَمَّةٌ، مِنْهَا ما يَعُودُ إلى الهَاجِرِينَ القائِمينَ بِهذِهِ الوظيفةِ الشَّرْعِيَّةِ العَقَدِيَّةِ، ومنها ما يَعُودُ إلَى المَهْجُورِ، وإلى عامَّةِ المُسْلمينَ، وإلى حِمَايَةِ السُّنَنِ مِنَ البِدَعِ والأهْوَاءِ، فالهَجْرُ الشَّرْعِيُّ - وَمِنْهُ هَجْرُ المُبْتَدِعَةِ -: عُقُوبَةٌ زَجْرِيَّةٌ مُتعدِّدةُ الغَاياتِ والمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ المَحْمُودةِ، وَهِيَ على ما يَلِي:

١- أنَّ (الزَّجْرَ بالهَجْرِ) عُقُوبةٌ شَرْعِيَّةٌ للمَهْجُورِ، فَهِيَ مِنْ جِنْسِ الجِهَادِ في سَبِيلِ اللهِ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وأداء لواجبِ الأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ، تَقَرُّبًا إلى اللهِ - تعالى - بواجبِ الحُبِّ والبُغْضِ فِيهِ ﷻ.

---

(١) «شرح سنن أبي داوُدَ» (٥٢٦/ ٦) لعبد المحسن العباد البدر، دروس صوتيَّة، قام بتفريغها موقعُ الشَّبكة الإسلاميَّة [الكتاب مُرقَّم آليًا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - ٥٩٨ درسًا].

٢- بَعْثُ اليَقَظَةِ في نُفُوسِ المُسْلِمينَ مِنَ الوُقُوعِ في هذِهِ البِدْعَةِ وتَحْذِيرُهُمْ.

٣- تَحْجِيمُ انتشارِ البِدْعَةِ.

٤- قَمْعُ المُبْتَدِعِ وزَجْرُهُ؛ ليضعفَ عَنْ نَشْرِ بِدْعَتِهِ؛ فإنَّهُ إذا حَصَلَتْ مُقَاطَعَتُهُ والنُّفْرَةُ مِنْهُ، بات كالثَّعْلَبِ في جُحْرِهِ، أمَّا مُعَاشَرَتُهُ ومُخَالطَتُهُ، وتَرْكُ تَحْسِيسِهِ بِبِدْعَتِهِ فهذا تَزْكِيَةٌ لَهُ، وتَنْشِيطٌ وتَغْرِيرٌ بالعامَّةِ؛ إذِ العامِيُّ مُشْتَقٌّ مِنَ العَمَىٰ، فَهُوَ بِيَدِ مَنْ يَقُودُهُ غَالبًا، فلا بُدَّ إذًا مِنَ الحَجْرِ علىٰ المُبْتَدِعِ استصلاحًا للدِّيانةِ وأحوالِ الجَماعةِ، وَهُوَ أَلْزَمُ مِنَ الحَجْرِ الصِّحِّيِّ لاسْتِصْلَاحِ الأَبْدَانِ.

وَبَعْدَ أنْ نَقَلَ الشَّاطِبِيُّ - رحمه الله تعالىٰ - بَعْضَ الآثارِ في النَّهْيِ عَنْ تَوْقِيرِ المُبْتَدِعِ، قال: «فإنَّ الإيواءَ يَجَامِعُ التَّوقِيرَ، ووَجْهُ ذلك ظاهِرٌ؛ لأنَّ المَشْيَ إليهِ والتَّوقِيرَ لَهُ تَعْظِيمٌ لَهُ لأجلِ بِدْعَتِهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا أنَّ الشَّرْعَ يَأْمُرُ بزَجْرِهِ وإهانتِهِ وإذلالِهِ بما هُوَ أشَدُّ مِنْ هذا: كالضَّرْبِ والقَتْلِ، فصار تَوْقِيرُهُ صُدُودًا عَنِ العَمَلِ بِشَرْعِ الإسلامِ، وإقبالًا علىٰ ما يُضَادُّهُ ويُنَافِيهِ، والإسلامُ لا يَنْهَدِمُ إلَّا بتَرْكِ العَمَلِ بِهِ، والعَمَلِ بما يُنَافِيهِ.

وأيْضًا فإنَّ تَوْقِيرَ صاحبِ البِدْعَةِ مظِنَّةٌ لمَفْسَدَتَيْنِ تَعُودَانِ بالهَدْمِ علىٰ الإسلامِ: أحدهما: الْتِفَاتُ العامَّةِ والجُهَّالِ إلىٰ ذلك التَّوقيرِ؛ فَيَعْتَقِدُونَ في المُبْتَدِعِ أنَّهُ أفْضَلُ النَّاسِ، وأنَّ ما هُوَ عَلَيْهِ خَيْرٌ ممَّا عَلَيْهِ غَيْرُهُ؛ فَيُؤَدِّي ذلك إلىٰ اتِّباعِهِ علىٰ بِدْعَتِهِ، دُونَ اتِّباعِ أَهْلِ السُّنَّةِ علىٰ سُنَّتِهِمْ»[١].

---

(١) انظر «هجر المبتدع» (٧).

الحديثُ التَّاسِعُ والعِشرُونَ

طاعةُ وُلَاةِ الأُمورِ في غَيرِ مَعصِيَةِ اللهِ، وتحريمُ الخُروجِ عليهِم

عَنْ أَبِي الوَلِيدِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي العُسْرِ وَاليُسْرِ، وَالمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلَىٰ أَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَىٰ أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ - تَعَالَىٰ - فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَىٰ أَنْ نَقُولَ بِالحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»(١).

الشَّرْحُ:

هذا الحديثُ قاعدةٌ مِنَ القَوَاعِدِ الَّتِي يُسْتَدَلُّ بِهَا فِي مُعَامَلةِ الحُكَّامِ.

قال الحافظُ ابنُ حَجَرٍ رحمه الله: «وفي الحديثِ: وُجُوبُ طاعةِ وُلَاةِ الأُمُورِ، وَهِيَ مُقَيَّدَةٌ بغَيْرِ الأَمْرِ بالمَعْصِيَةِ، والحِكْمَةُ في الأَمْرِ بطاعَتِهِم: المُحافظةُ علىٰ اتِّفاقِ الكَلِمَةِ؛ لما في الافْتِرَاقِ مِنَ الفَسَادِ»(٢).

وقَالَ: «وَقَدْ أَجْمَعَ الفُقَهَاءُ عَلَىٰ وُجُوبِ طَاعَةِ السُّلْطَانِ المُتَغَلِّبِ وَالجِهَادِ مَعَهُ، وَأَنَّ طَاعَتَهُ خَيْرٌ مِنَ الخُرُوجِ عَلَيْهِ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَقْنِ الدِّمَاءِ، وَتَسْكِينِ الدَّهْمَاءِ»(٣).

وقال ابنُ عُثَيمين رحمه الله: «بَايَعْنَا» أَيْ: بايع الصحابةُ رضي الله عنهم الرَّسولَ ﷺ علىٰ السَّمْعِ والطَّاعةِ، يَعْنِي: لِمَنْ ولَّاهُ اللهُ الأَمْرَ؛ لأَنَّ اللهَ - تعالىٰ - قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٢٠٠)، ومسلم (١٧٠٩) واللَّفظُ لَهُ.

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ١١٢).

(٣) المرجع السَّابق (١٣/ ٧).

اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

يَقُولُ: بايعناهُ على السَّمعِ والطَّاعةِ، ويُستثنَى مِنْ هذا معصيةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، فلا يُبايَعُ عَلَيْهَا أحدٌ؛ لأنَّهُ لا طاعةَ لمَخلُوقٍ في مَعْصِيَةِ الخَالِقِ.

وَقوْلُهُ: «في العُسْرِ واليُسْرِ» يَعْنِي: سَوَاءٌ كُنَّا مُعْسِرينَ في المالِ، أوْ كُنَّا مُوسرينَ، يَجِبُ علينا جميعًا أغنيائِنا وفُقرائِنا أنْ نُطِيعَ وُلاةَ أُمورِنا، ونَسْمَعَ لَهُمْ، وكذلك في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا، يَعْني: سواءٌ كُنَّا كارِهِينَ لذلك؛ لكَوْنِهِمْ أمَرُوا بما لا نَهْوَاهُ ولا نُرِيدُهُ، أوْ كُنَّا نَشِيطِينَ في ذلك؛ لكَوْنِهِمْ أمَرُوا بما يُلائِمُنا ويُوافِقُنا، المهمُّ أنْ نَسْمَعَ ونُطِيعَ في كُلِّ حالٍ، إلَّا ما اسْتُثْنِيَ ممَّا سَبَقَ.

قال: «وأَثَرةٍ علينا» أثرة يَعْني: استئثارًا علينا، يَعْنِي: لَوْ كان وُلاةُ الأمرِ يَسْتأثِرُونَ على الرَّعِيَّةِ بالمالِ، أوْ غَيْرِهِ ممَّا يُرَفِّهُونَ بِهِ أنْفُسَهُمْ، ويَحْرِمُونَ مَنْ ولَّاهُمُ اللهُ عليهم - فإنَّهُ يَجِبُ علينا السَّمْعُ والطَّاعةُ، لا نَقُولُ: أنْتُمْ أكَلْتُمُ الأموالَ، وأفْسَدْتُمُوها، وبَذَّرْتُمُوها؛ فلا نُطِيعُكُمْ، بَلْ نَقُولُ: سَمْعًا وطاعةً للهِ ربِّ العالمين، ولَوْ كان لَكُمْ استئثارٌ علينا، ولَوْ كُنَّا نَحْنُ لا نَسْكُنُ إلَّا الأكْواخَ، ولا نَفْترِشُ إلَّا الخَلَقَ[1] مِنَ الفُرُشِ، وأنْتُمْ تَسْكُنُونَ القُصُورَ، وتتمتَّعُونَ بأفْضَلِ الفُرُشِ.

ثُمَّ قال: «وألَّا نُنازِعَ الأمْرَ أهْلَهُ» يَعْنِي: لا نُنازِعُ وُلاةَ الأُمُورِ ما ولَّاهُمُ اللهُ عَلَيْنا؛ لنأخُذَ الإمْرةَ مِنْهُمْ؛ فإنَّ هذِهِ المُنازعة تُوجِبُ شَرًّا كَثِيرًا، وفِتَنًا عظيمةً، وتَفرُّقًا بَيْنَ المُسْلِمينَ، وَلَمْ يُدَمِّرِ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ إلَّا مُنازَعَةُ الأمْرِ أهْلَهُ مِنْ عَهْدِ عُثْمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى يَوْمِنَا هذا، ما أفْسَدَ النَّاسَ إلَّا مُنازعةُ الأمرِ أهْلَهُ.

---

(١) الخَلَق - بفتحتين -: البالي القديم، وبابُ خَلُقَ سَهُلَ.

قال: «إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ» ثلاثةُ شُرُوطٍ، إذا رَأَيْنا هذا، وتمَّتِ الشُّروطُ الثَّلاثةُ، فحِينَئِذٍ نُنَازِعُ الأَمْرَ أَهْلَهُ، ونُحاوِلُ إِزالَتَهُمْ عَنْ وِلَايَةِ الأَمْرِ، لكِنْ بشُرُوطٍ:

الأوَّل: أَنْ تَرَوْا، فلا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ، أمَّا مُجَرَّدُ الظَّنِّ؛ فلا يُجوزُ الخُرُوجَ علىٰ الأئمَّةِ.

الثَّاني: أَنْ نَعْلَمَ كُفْرًا لا فِسْقًا؛ الفسوقُ مَهْما فَسَقَ وُلَاةُ الأُمُورِ، لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عَلَيْهِمْ، لَوْ شَرِبُوا الخَمْرَ، لَوْ زَنَوْا، لَوْ ظَلَمُوا النَّاسَ، لا يَجُوزُ الخُرُوجُ عليهم، لكِنْ إذا رَأَيْنا كُفْرًا صَرِيحًا يَكُونُ بَوَاحًا.

الثَّالث: الكُفْرُ البَوَاحُ، وهذا مَعْنَاهُ: الكُفْرُ الصَّرِيحُ، البَوَاحُ: الشَّيْءُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ، فأمَّا ما يحتملُ التَّأويلَ فلا يَجوز الخُرُوجَ عليهم، يَعْنِي: لو قَدَّرنا أنَّهم فَعَلُوا شَيْئًا نَرَىٰ أنَّهُ كُفْرٌ، لكِنْ فِيهِ احتمالُ أنَّهُ لَيْسَ بكُفْرٍ، فإنَّهُ لا يُجوزُ أن نُنَازِعَهُمْ، أو نَخْرُجَ عليهم، ونُوَلِّيهم ما تولَّوا.

لكِنْ إذا كان بَوَاحًا صَرِيحًا، مثل: لَوْ أَنَّ وَلِيًّا مِنْ وُلَاةِ الأُمُورِ قال لشَعْبِهِ: إنَّ الخَمْرَ حَلَالٌ، اشْرَبُوا ما شِئْتُمْ، وإنَّ اللواطَ حلالٌ، تَلُوطُوا بِمَنْ شِئْتُمْ، وإنَّ الزِّنَىٰ حَلَالٌ، ازْنُوا بِمَنْ شِئْتُمْ، فهذا كُفْرٌ بَوَاحٌ لَيْسَ فِيهِ إشكالٌ، هذا يَجِبُ علىٰ الرَّعِيَّةِ أَنْ يُزِيلُوهُ بكُلِّ وسيلةٍ، وَلَوْ بالقَتْلِ؛ لأنَّ هذا كُفْرٌ بَوَاحٌ.

الشَّرطُ الرَّابع: عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ، يَعْنِي: عِنْدَنَا دليلٌ قاطعٌ علىٰ أنَّ هذا كُفْرٌ، فإنْ كان الدَّليلُ ضَعِيفًا في ثُبُوتِهِ، أو ضَعِيفًا في دلالتِهِ، فإنَّهُ لا يجوزُ الخُرُوج عليهم؛ لأنَّ الخُرُوجَ فِيهِ شرٌّ كثيرٌ جِدًّا، ومَفَاسِدُ عظيمةٌ.

وإذا رأينا هذا - مثلًا - فلا تجوزُ المنازعة حتَّىٰ يكونَ لدينا قُدرةٌ علىٰ إزاحَتِهِ، فإنْ لَمْ يَكُنْ لَدَينا قُدرةٌ، فلا تَجُوزُ المُنازعةُ؛ لأنَّهُ رُبَّما إذا نازعنا، وليس عِنْدَنا قُدرةٌ،

يَقضِي علىٰ البقيَّةِ الصَّالحةِ، وتَتِمُّ سَيْطَرتُهُ.

فهذِهِ الشُّروطُ شُرُوطٌ للجوازِ أو للوُجُوبِ - وُجُوبِ الخُرُوجِ علىٰ وَليِّ الأمْرِ - لكنْ بشَرْطِ أنْ يَكُونَ لدينا قُدرةٌ، فإنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا قُدْرَةٌ، فلا يجوزُ الخُرُوجُ؛ لأنَّ هذا مِنْ إلقاءِ النَّفْسِ في التَّهْلُكَةِ.

أيُّ فائدةٍ إذا خَرَجْنا علىٰ هذا الوَليِّ الَّذي رَأَيْنا عِنْدَهُ كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَنا فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهانٌ، ونَحْنُ لا نَخْرُجُ إليهِ إلَّا بِسِكِّينِ المَطْبَخِ، وَهُوَ مَعَهُ الدَّبَّاباتُ والرَّشَّاشاتُ، أيُّ فائدةٍ؟ لا فائدةَ، ومَعْنَىٰ هذا: أنَّنا خَرَجْنا لِنَقْتُلَ أنْفُسَنا، نَعَمْ لا بُدَّ أنْ نتحيَّلَ بكُلِّ حِيلةٍ علىٰ القَضاءِ عَلَيْهِ، وعلىٰ حُكْمِهِ، لَكِنْ بالشُّرُوطِ الأربعةِ الَّتي ذَكَرَها النَّبيُّ - عليه الصلاةُ والسَّلامُ -: «**أنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا، عِنْدَكُمْ فِيهِ مِنَ اللهِ بُرْهَانٌ**». فهذا دليلٌ علىٰ احترامِ حقِّ وُلَاةِ الأُمُورِ، وأنَّه يَجِبُ علىٰ الناسِ طاعَتُهُمْ في اليُسْرِ والعُسْرِ، والمَنْشَطِ والمَكْرَهِ، والأَثَرَةِ الَّتي يَسْتَأْثِرُونَ بها.

وأمَّا قولُ بَعْضِ النَّاسِ مِنَ السُّفَهاءِ: إنَّهُ لا تَجِبُ علينا طاعةُ وُلاةِ الأُمُورِ إلَّا إذا استقاموا استقامةً تامَّةً، فهذا خطأٌ، وهذا غَلَطٌ، وهذا لَيْسَ مِنَ الشَّرْعِ في شَيْءٍ، بَلْ هذا مِنْ مَذْهَبِ الخَوارِجِ، الَّذين يُرِيدُونَ مِنْ وُلاةِ الأُمُورِ أنْ يَسْتَقِيموا علىٰ أمْرِ اللهِ في كُلِّ شَيْءٍ، وهذا لم يَحْصُلْ مُنْذُ زَمَنٍ؛ فَقَدْ تَغَيَّرَتِ الأُمُورُ.

ويُذْكَرُ: أنَّ أحَدَ مُلُوكِ بَنِي أُمَيَّةَ سَمِعَ أنَّ النَّاسَ يتكلَّمون فِيهِ، وفي خِلَافَتِهِ، فَجَمَعَ أَشْرَافَ النَّاسِ وَوُجَهاءَهُمْ، وتكلَّم فيهم، وقال لَهُمْ: إنَّكُمْ تُرِيدُونَ مِنَّا أنْ نَكُونَ مِثْلَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ؟ قالوا: نَعَمْ؛ أنْتَ خَليفةٌ، وهُمْ خُلَفَاءُ. قال: كُونُوا أنْتُمْ مِثْلَ رِجالِ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ؛ نَكُنْ نَحْنُ مِثْلَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ!.

وهذا جوابٌ عظيمٌ، فالنَّاسُ إذا تغيَّروا؛ لا بُدَّ أنْ يُغَيِّرَ اللهُ وُلَاتَهُمْ؛ كما تكُونُونَ يُوَلَّىٰ عَلَيْكُمْ. أمَّا أنْ يُرِيدَ النَّاسُ مِنَ الوُلاةِ أنْ يَكُونُوا مِثْلَ الخُلَفاءِ، وهُمْ أبْعَدُ ما يَكُونُونَ عَنْ رِجَالِ الخُلَفاءِ - هذا غيرُ صحيحٍ، اللهُ حكيمٌ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

قَوْلُهُ: «لا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ» يَعْنِي: لا يَهُمُّنا إذا لامَنَا أحَدٌ في دِينِ اللهِ؛ لأنَّنا نَقُومُ بالحقِّ.

فمثلًا: لَوْ أرادَ الإنسانُ أنْ يُطَبِّقَ سُنَّةً يَسْتَنْكِرُها العامَّةُ، فإنَّ هذا الاستنكارَ لا يَمْنَعُ الإنسانَ مِنْ أنْ يَقُومَ بهذِهِ السُّنَّةِ.

الحديثُ الثلاثون

أبرزُ صِفةِ الخوارجِ

عن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ(١)، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الْجَبِينِ(٢)، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقٌ(٣)، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ يَا مُحَمَّدُ. فَقَالَ: «مَنْ يُطِعِ اللهَ إِذَا عَصَيْتُ، أَيَأْمَنُنِي اللهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَلَا تَأْمَنُونَنِي؟!» فلمَّا ولَّى الرَّجُلُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِي(٤) هذَا - أَوْ فِي عَقِبِ هذَا - قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ(٥)، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ، لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»(٦).

الشَّرْحُ:

الحديثُ أصلٌ عظيمٌ في معرفةِ الخَوارجِ، فَهُمْ أوَّلُ مَنْ كفَّرَ المُسْلمين، يُكَفِّرون بالذُّنوبِ، ويُكفِّرونَ مَنْ خالَفَهُمْ في بِدْعَتِهِمْ، ويَسْتَحِلُّونَ دَمَهُ ومالَهُ، وهذا حالُ أهْلِ

---

(١) غائر العينين: أي: أنَّ عَيْنَيْهِ داخلتانِ في محاجِرِهما، لاصقتانِ بقَعْرِ الحدقةِ.

(٢) ناتئ الجَبِين: بارزُهُ مُرتفعُهُ.

(٣) محلوقٌ: أيْ: محلوقُ الرَّأسِ، وحَلْقُ الرَّأسِ إذْ ذاك مخالفٌ للعرب؛ فإنَّهُمْ كانوا يفرقون شُعُورَهُمْ ولا يَحْلِقُونَها.

(٤) الضِّئْضِئ: النَّسْل.

(٥) يمرقون من الدِّين مُرُوقَ السَّهم مِنَ الرَّمِيَّةِ أيْ: يَخْرُجُونَ مِنْهُ خُرُوجَ السَّهْمِ، إذا نَفَذَ الصَّيْدَ مِنْ جهةٍ أُخرَى، ولم يتعلَّقْ به شيءٌ مِنْهُ، والرَّمِيَّةُ: هي الصَّيْدُ المَرْمِيُّ، فهي فَعِيلةٌ بمعنَى مَفْعُولَةٍ.

(٦) رواه البخاريُّ (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤).

البِدَعِ، يَبْتَدِعُونَ بِدْعَةً، ويُكَفِّرُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ فِيهَا، فمن صِفَاتِهِمْ:

١- لا يَفْهَمُونَ القُرْآنَ، وَهُوَ لا يَصِلُ إلىٰ حُلُوقِهِم، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَصِلَ إلىٰ قُلُوبِهِمْ، وعَدَمُ فَهْمِهِمْ للقُرآنِ يَجْعَلُهُمْ يَأْخُذُونَ آياتٍ نَزَلَتْ فِي الكُفَّارِ، فَيَجْعَلُونَها علىٰ المُسْلِمِينَ، كما قال عبدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما في الخَوارِجِ: «إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا إلىٰ آياتٍ نَزَلَتْ في الكُفَّارِ، فجعلوها في المُؤْمِنِينَ»[1].

٢- التَّكْفِيرُ واستحلالُ الدِّماءِ «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإسلامِ، ويَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ». وقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ - صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلَّم - بقَتْلِهِمْ لذلك.

قال النَّوويُّ رحمه الله عِنْدَ قَوْلِهِ: «فإذا لَقِيتهم فاقْتُلُوهُمْ...» إلخ: «هذا تَصْرِيحٌ بوُجُوبِ قَتْلِ الخَوَارِجِ والبُغَاةِ، وهُوَ إجماعُ العُلَماءِ، قال القاضي: أَجْمَعَ أَهْلُ العِلْمِ علىٰ أَنَّ الخَوَارِجَ، وأَشْبَاهَهُمْ مِنْ أَهْلِ البِدَعِ والبَغْيِ، مَتَىٰ خَرَجُوا علىٰ الإمامِ، وخالفوا رَأْيَ الجَمَاعَةِ، وشَقُّوا العَصَا - وَجَبَ قِتَالُهُمْ بَعْدَ إنذارِهِمْ، والإعذارِ إليهم، قال اللهُ - تعالىٰ -: ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الحجرات: ٩]»[2].

وقال ابنُ عثيمين رحمه الله: «هكذا وَصَفَهُمُ النَّبِيُّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، وأوَّلُهُمْ كان في عَهْدِ الرَّسُولِ ﷺ حِينَما قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ الغنيمةَ، فقال له رَجُلٌ: «اعْدِلْ يا مُحَمَّدُ»، أو قال: «هذِهِ قِسْمَةٌ ما أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[3] نعوذُ باللهِ!، وهذا خُرُوجٌ بالقَوْلِ. لأَنَّ الخُرُوجَ نَوْعَانِ: خُرُوجٌ بالقَوْلِ، وخُرُوجٌ بالسَّيْفِ والقِتَالِ، والأوَّلُ

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٢٨٦)، وصحَّحه الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ.

(٢) «شرح النَّوويِّ علىٰ مسلمٍ» (٧/ ١٧٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٤٠٥)، ومسلم (١٠٦٢).

مُقَدِّمةٌ للثاني؛ لأنَّ الَّذين يَخرُجونَ بالسَّيفِ لا يَخرُجونَ هكذا فَقَطْ، يَحمِلُونَ السِّلاحَ ويَمشُونَ. لا بُدَّ أنْ يُقَدِّموا مُقَدِّماتٍ، وهي أنْ يَملَئُوا قُلُوبَ الشُّعُوبِ بُغضًا وَعَداءً لِوُلَاتِهِم، وحينئذٍ يتهيَّأُ الأمْرُ للخُرُوجِ [١].

---

(١) «لقاء الباب المفتوح» (١٧٦/ ٧) للعثيمين، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلاميَّة.

الحديثُ الحادِي والثلاثون

فَضلُ الصَّحابةِ، ثُمَّ الَّذين يَلُونهم، ثُمَّ الَّذين يَلُونهم

عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ، تَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ، وَشَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ»(١).

الشَّرْحُ:

قال الشيخُ الألبانيُّ رحمه الله: («خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي» ولا تقولُوا كما يقولُ الجماهيرُ مِنَ الدُّعَاةِ: خَيْرُ القُرُونِ؛ خَيْرُ القُرُونِ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي السُّنَّةِ، السُّنَّةُ الصَّحيحةُ فِي الصَّحيحَيْنِ وغيرِهِمَا مِنْ مراجعِ الحديثِ والسُّنَّةِ مُطْبِقَةٌ علىٰ روايةِ الحديثِ بلفظ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُم»)(٢) ا.هـ.

القَرْنُ - كما يقولُ العُلَماءُ -: أَهْلُ زمانٍ واحِدٍ مُتَقارِبٍ، اشتركوا في أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ المَقْصُودةِ، ويَكُونُ القَرْنُ مِائةَ عامٍ، كما في حديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُسْرٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ، فَقَرْنُهُ ﷺ خَيْرُ القُرُونِ علىٰ الإطلاقِ؛ كما دَلَّ عليه حديثُ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه في البُخاريِّ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّىٰ كُنْتُ مِنَ القَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»(٣). والمرادُ بِقَرْنِهِ ﷺ: صَحَابَتُهُ رضي الله عنهم، ولا شكَّ في ذلك ولا رَيْبَ، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ أي: التَّابعون، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهُمْ أي: أتباعُ التَّابعين.

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٥١)، ومسلم (٢١١).

(٢) «موسوعة الألبانيِّ في العقيدة» (١/ ٢١٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٥٥٧).

فاقتضىٰ هذا الحديثُ واستلزمَ أنْ يَكُونَ الصَّحابةُ خَيْرًا مِنَ التَّابعينَ، والتَّابعون خَيْرًا مِنْ أتْباعِ التَّابعينَ.

وقَدِ اتَّفق أهلُ العِلْمِ علىٰ أنَّ الصَّحابةَ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الأنبياءِ؛ دلَّ علىٰ ذلك حديثُ البابِ، وأفضلُ الصَّحابةِ: أبو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمانُ، ثُمَّ عليُّ بْنُ أبي طالبٍ - رضي الله عنهم أجْمَعِينَ، وأدلَّةُ هذا كثيرةٌ، وعامَّةُ أهْلِ العِلْمِ علىٰ هذا، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ ﷻ بَقَاءَ الصَّحابةِ أَمَنَةً للأُمَّةِ، فإذا ذَهَبَ قَرْنُهُمْ، وانْقَرَضَ جِيلُهُمْ، حَلَّتْ بِمَنْ بَعْدَهُمُ الفِتَنُ، وظَهَرَتِ البِدَعُ، وفَشَا الجَوْرُ والفَسَادُ.

عن أبي مُوسَىٰ الأشْعَرِيِّ ﷺ قال: صَلَّيْتُ المَغْرِبَ مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنا: لَوْ جَلَسْنَا حتَّىٰ نُصَلِّيَ مَعَهُ العِشَاءَ، قال: فَجَلَسْنا، فَخَرَجَ عَلَينا، فقال: «ما زِلْتُمْ ههنا؟» قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، صَلَّينا مَعَكَ المَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنا: نَجْلِسُ حتَّىٰ نُصَلِّيَ مَعَكَ العِشَاءَ. قال: «أَحْسَنْتُمْ» أو «أَصَبْتُمْ». قال: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلىٰ السَّماءِ - وكان كثيرًا ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلىٰ السَّمَاءِ - فقال: «النُّجُومُ أَمَنَةُ السَّماءِ؛ فإذا ذَهَبَتِ النُّجُومُ، أَتَىٰ السَّمَاءَ ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي؛ فإذا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابي ما يُوعَدُونَ، وأَصْحابي أَمَنَةٌ لأُمَّتي؛ فإذا ذَهَبَ أَصْحَابي، أَتَىٰ أُمَّتي ما يُوعَدُونَ»[1].

قال الإمامُ النَّوويُّ: (ومَعْنَىٰ الحديثِ: أنَّ النُّجُومَ ما دامتْ باقيةً، فالسَّماءُ باقيةٌ، فإذا انْكَدَرَتِ النُّجُومُ، وتناثرتْ في القيامةِ، وَهَنَتِ السَّمَاءُ؛ فانْفَطَرَتْ وانشقَّتْ، وذَهَبَتْ. وقَوْلُهُ ﷺ: «وأنا أَمَنَةٌ لأَصْحَابي؛ فإذا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابي ما يُوعَدُونَ» أيْ: مِنَ الفِتَنِ، والحُرُوبِ، وارتدادِ مِنَ الأعرابِ، واختلافِ القُلُوبِ، وَنَحْوِ ذلك مِمَّا

(١) رواه مسلم (٢٥٣١).

أنْذَرَ بِهِ صريحًا. وقَوْلُهُ ﷺ: «وأصحابي أمَنَةٌ لأُمَّتي؛ فإذا ذهب أصْحَابي، أتَىٰ أُمَّتِي ما يُوعَدُونَ» مَعْنَاهُ: مِنْ ظُهُورِ البِدَعِ، والحَوَادِثِ في الدِّينِ، والفِتَنِ فِيهِ، وطُلُوعِ قَرْنِ الشَّيطانِ، وظُهُورِ الرُّومِ وغَيْرِهِمْ، وانْتِهَاكِ مَكَّةَ والمدينةِ، وغَيْرِ ذلك)[1].

وعَنْ أبي سعيدٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «يَأْتِي علىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ[2] مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟، فيقولون: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ الناسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ مَنْ صَحِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ؟، فيقولون: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ لَهُمْ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ رَأَىٰ مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رسولَ اللهِ ﷺ؟، فيقولون: نَعَمْ؛ فَيُفْتَحُ لَهُمْ»[3].

وقال ﷺ: «إذا ذُكِرَ أَصْحَابي فَأَمْسِكُوا، وإذا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وإذا ذُكِرَ القَدَرُ فَأَمْسِكُوا»[4].

ومَعْنَىٰ «إذا ذُكِرَ أَصْحَابي فَأَمْسِكُوا»: قال أبو الحَسَنِ الأَشْعَرِيُّ: «قال أَهْلُ العِلْمِ: ومعنىٰ ذلك: لا تَذْكُرُوهُمْ إلَّا بخَيْرِ الذِّكْرِ»[5].

---

(١) «شرح النَّوويِّ علىٰ مُسْلِم» (١٦/ ٨٣).

(٢) فِئَام - بالكسر - أيْ: جماعةٌ كثيرة.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٨٩٧)، ومسلم (٢٥٣٢).

(٤) (صحيح) «المعجم الكبير» للطَّبرانيِّ (٢/ ٩٦)، «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٠٢)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٥٤٥).

(٥) «رسالة إلىٰ أهل الثَّغْرِ» (ص١٧٢).

الحديثُ الثاني والثلاثون

تحريمُ التشبُّهِ بالكافرين

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ(١)، فَهُوَ مِنْهُمْ(٢)»(٣).

الشَّرْحُ:

قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمه الله: «هذا الحديثُ أقلُّ أحوالِهِ: أنْ يَقتضِي تحريمَ التَّشبُّهِ بِهِم، وإنْ كان ظاهِرُهُ يقتضِي كُفرَ المُتَشبِّهِ بِهِم، كما في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] فقد يُحمَلُ هذا على التشبُّهِ المُطلَقِ، فإنَّهُ يُوجِبُ الكُفرَ، ويَقتضِي تحريمَ أبعاضِ ذلك، وَقَدْ يُحمَلُ على أنَّهُ مِنهُمْ في القَدْرِ المُشْتَرِكِ الَّذي شابَهَهُمْ فِيهِ، فإن كان كُفرًا، أو معْصِيةً، أو شِعارًا لها - كان حُكْمُهُ كذلك»(٤).

وَقَدْ عَمَّ تشبُّهُ المُسْلِمينَ بالكُفَّارِ في عَصْرِنا، سِيَّما في اللِّباسِ، وتتَبُّعِ الموضةِ.

قال عُلَماءُ اللَّجنةِ الدَّائمةِ للإفتاءِ: «يحرمُ على المُسْلمينَ التَّشبُّهُ بالكُفَّارِ بِألبِسَتِهِمُ الخاصَّةِ بِهِمْ، سواء كان الكُفَّارُ مِنَ اليَهُودِ، أوِ النَّصارى، أوْ غَيْرِهِمْ؛ لعُمُومِ الأدلَّةِ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ الَّتي تَنْهَى عَنِ التَّشبُّهِ بِهِمْ، ومن ذلك ما ثبت عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنَّهُ قال:

---

(١) أيْ: تَزَيَّا فِي ظَاهِرِهِ بِزِيِّهِمْ، وَسَارَ بِسِيرَتِهِمْ وَهَدْيِهِمْ فِي مَلْبَسِهِمْ وَبَعْضِ أَفْعَالِهِمْ. «عون المعبود» (٩/ ٥٤).

(٢) أيْ: فَهُوَ مِنْهُمْ فِي الْإِثْمِ وَالْخَيْرِ «عون المعبود» (٩/ ٥٤).

(٣) (صحيح) أخرجه أبو داوُدَ (٤٠٣١)، وأحمدُ (٥١١٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في «الإرواء» (٢٣٨٤)، وصحَّحه شيخُنا الوادعيُّ في «دلائل النُّبوة» (٤٨٥).

(٤) «اقتضاءُ الصِّراطِ المُستقيمِ» (٤٣).

«مَنْ تشبَّه بقَوْمٍ، فَهُوَ مِنهُمْ». أخرجه الإمامُ أحمدُ، وأبو داوُدَ، وغَيْرُهُمَا، وقال النَّبيُّ ﷺ لمَّا رأىٰ علىٰ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ثَوْبَيْنِ مُعَصْفَرَيْنِ[1]: «إنَّ هذِهِ مِنْ ثِيابِ الكُفَّارِ؛ فلا تَلْبَسْهَا» خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»، وثبت في «صحيح مُسْلِمٍ»: أنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتب كتابًا إلىٰ عامِلِهِ بأَذْرَبيجانَ عُتْبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وفيه: «وإيَّاكُمْ والتَّنَعُّمَ، وَزِيَّ أَهْلِ الشِّرْكِ، ولبوسَ الحَرِيرِ».

وبناءً علىٰ ذلك؛ فلا يَجُوزُ لُبْس ما يُسَمَّىٰ بـ (الروبِ) عِنْدَ التَّخَرُّجِ مِنْ مَدْرَسَةٍ، أو مَعْهَدٍ، أو كُلِّيَّةٍ؛ لأنَّهُ مِنْ أَلْبِسَةِ النَّصارَىٰ، وعلىٰ المُسْلِمِ أَنْ يَعْتَزَّ بِدِينِهِ واتِّباعِهِ لنبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ، ولا يَلْتَفِتَ إلىٰ تَقْلِيدِ مَنْ غَضِبَ اللهُ عليهم وأَضَلَّهُمْ مِنَ اليَهُودِ، والنَّصارَىٰ، وَغيْرِهِمْ»[2].

وما مِنْ شَكٍّ أنَّ التَّشبُّهَ بالكُفَّارِ في الظَّاهِرِ يَجُرُّ إلىٰ التَّشَبُّهِ بِهِمْ في البَاطِنِ، واللهُ المُسْتَعَانُ.

قال ابنُ عُثَيمين رَحِمَهُ اللهُ: «قالوا: وشَيْءٌ آخرُ، وهو أنَّ التشبُّهَ بِهِمْ (أَيْ: بالكُفَّار) في الظَّاهِرِ يَجُرُّ إلىٰ التَّشَبُّهِ بِهِمْ في البَاطِنِ، وَهُوَ كذلك، فإنَّ الإنسانَ إذَا تشبَّهَ بِهِمْ في الظَّاهرِ؛ يُشْعِرُ بأنَّهُ مُوافِقٌ لَهُمْ، وأنَّهُ غَيْرُ كارِهٍ لَهُمْ، وَيَجُرُّهُ ذلك إلىٰ أَنْ يتشبَّهَ بِهِمْ في الباطنِ؛ فيكونُ خاسرًا لدينِهِ ودُنْياهُ»[3].

---

(١) المُعَصْفَرُ: المصبوغُ بالعُصْفُرِ، وَهُوَ صِبْغٌ أحمرُ.

(٢) «فتاوىٰ اللَّجنة الدَّائمة» (٢٤/ ٢٦، ٢٧).

(٣) «الشرح الممتع» (٢/ ١٦٩).

الحديث الثالث والثلاثون

أشراط الساعة الصغرى

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُمَّ مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ؛ حَتَّى يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ سَاخِطًا، ثُمَّ فِتْنَةٌ لا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ، ثُمَّ هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ؛ فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا»(١).

الشَّرح:

«وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ» أَيِ: الْأَشْجَعِيِّ، صَحَابِيٌّ مشهورٌ «قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، وَهُوَ فِي قُبَّةٍ» أَيْ: خَيْمَةٍ، «مِنْ أَدَمٍ» – بِفَتْحَتَيْنِ – أَيْ: مِنْ جِلْدٍ، «فَقَالَ: اعْدُدْ» أي: احْسِبْ وَعُدَّ «سِتًّا» أَيْ: مِنَ الْعَلَامَاتِ الْوَاقِعَةِ «بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ» أَيْ: قُدَّامَهَا، «مَوْتِي» أَيْ: فَوْتِي بِانْتِقَالِي مِنْ دَارِ الدُّنْيَا إِلَى الْأُخْرَى؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ زَوَالِ الْكَمَالِ بِحِجَابِ الْجَمَالِ، «ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ» بِفَتْحِ مِيمٍ، وَسُكُونِ قَافٍ، وَكَسْرِ دَالٍ، وَفِي نُسْخَةٍ بِضَمٍّ فَفَتْحٍ فَتَشْدِيدٍ، «ثُمَّ مُوتَانٌ» – بِضَمِّ الْمِيمِ – أَيْ: وَبَاءٌ «يَأْخُذُ فِيكُمْ» أَيْ: يَتَصَرَّفُ فِي أَبْدَانِكُمْ، «كَقُعَاصِ الْغَنَمِ» – بِضَمِّ الْقَافِ –: دَاءٌ يَأْخُذُ الْغَنَمَ، فَلَا يَلْبَثُهَا أَنْ تَمُوتَ. قال التُّورِبِشْتِيُّ رحمه الله: أَرَادَ بِالْمُوتَانِ: الْوَبَاءَ، وَهُوَ – فِي الْأَصْلِ –: مَوْتٌ يَقَعُ فِي الْمَاشِيَةِ، وَالْمِيمُ مِنْهُ مَضْمُومَةٌ، وَاسْتِعْمَالُهُ

(١) رواه البخاريُّ (٣١٧٦).

فِي الْإِنْسَانِ تَنْبِيهٌ عَلَىٰ وُقُوعِهِ فِيهِمْ وُقُوعَهُ فِي الْمَاشِيَةِ، فَإِنَّهَا تُسْلَبُ سَلْبًا سَرِيعًا، وَكَانَ ذَلِكَ فِي طَاعُونِ عَمَوَاسَ زَمَنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ -، وَهُوَ أَوَّلُ طَاعُونٍ وَقَعَ فِي الْإِسْلَامِ، مَاتَ مِنْهُ سَبْعُونَ أَلْفًا فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَعَمَوَاسُ: قَرْيَةٌ مِنْ قُرَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَقَدْ كَانَ بِهَا مُعَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ.

«ثُمَّ اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ» أَيْ: كَثْرَتُهُ فِي شَرْحِ السُّنَّةِ، وَأَصْلُهُ: التَّفَرُّقُ وَالِانْتِشَارُ، يُقَالُ: اسْتَفَاضَ الْحَدِيثُ: إِذَا انْتَشَرَ، وَفِي النِّهَايَةِ: هُوَ مِنْ فَاضَ الْمَالُ، وَالدَّمْعُ، وَغَيْرُهُمَا: إِذَا كَثُرَ، «حَتَّىٰ يُعْطَى الرَّجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَيَظَلُّ» - بِالرَّفْعِ، وَجُوِّزَ النَّصْبُ - أَيْ: فَيَصِيرُ «سَاخِطًا» أَيْ: غَضْبَانَ؛ لِعَدِّهِ الْمِائَةَ قَلِيلًا، وَهَذِهِ الْكَثْرَةُ ظَهَرَتْ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُ - عِنْدَ الْفُتُوحِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَبَعْضُ أَهْلِ زَمَانِنَا يَعُدُّونَ الْأَلْفَ قَلِيلًا وَيُحَقِّرُونَهُ، «ثُمَّ فِتْنَةٌ» أَيْ: بَلِيَّةٌ عَظِيمَةٌ، قِيلَ: هِيَ مَقْتَلُ عُثْمَانَ وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْفِتَنِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَيْهَا، «لَا يَبْقَىٰ بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ» قِيلَ: الْمُرَادُ مِنْ بُيُوتِ أُمَّتِهِ، وَإِنَّمَا خَصَّ الْعَرَبَ؛ لِشَرَفِهَا وَقُرْبِهَا مِنْهُ، فَفِيهِ نَوْعُ تَغْلِيبٍ، أَوْ إِيمَاءٌ إِلَىٰ مَا قِيلَ: إِنَّ مَنْ أَسْلَمَ فَهُوَ عَرَبِيٌّ، «ثُمَّ هُدْنَةٌ» أَيْ: مُصَالَحَةٌ «تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ» أَيِ: الْأَرْوَامِ؛ سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ أَبَاهُمُ الْأَوَّلَ - وَهُوَ الرُّومُ بْنُ عِيصُو بْنِ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ - كَانَ أَصْفَرَ فِي بَيَاضٍ، وَقِيلَ: سُمُّوا بِاسْمِ رَجُلٍ أَسْوَدَ مَلَكَ الرُّومَ، فَنَكَحَ مِنْ نِسَائِهَا، فَوُلِدَ لَهُ أَوْلَادٌ فِي غَايَةِ الْحُسْنِ؛ فَنُسِبَ الرُّومُ إِلَيْهِ، «فَيَغْدِرُونَ» أَيْ: يَنْقُضُونَ عَهْدَ الْهُدْنَةِ؛ «فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً» أَيْ: رَايَةً، وَهِيَ الْعَلَمُ. قَالَ الطِّيبِيُّ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ -: وَمَنْ رَوَاهُ بِالْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ أَرَادَ بِهَا الْأَجَمَةَ، فَشَبَّهَ كَثْرَةَ رِمَاحِ الْعَسْكَرِ بِهَا.

«تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا» أَيْ: أَلْفَ فَارِسٍ. قَالَ الْأَكْمَلُ: جُمْلَتُهُ سَبْعُمِائَةِ أَلْفٍ وَسِتُّونَ أَلْفًا[1].

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» للقاري (٨/ ٣٤١١).

الحديثُ الرَّابعُ والثَّلاثُونَ

خُرُوجُ المَهدِيِّ في آخِرِ الزَّمَانِ

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيا إلَّا يَوْمٌ واحِدٌ، لَطَوَّلَ اللهُ ذلك اليَوْمَ؛ حتَّىٰ يَبْعَثَ اللهُ فِيهِ رَجُلًا مِنِّي - أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي - يُواطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، واسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أبي، يَمْلَأُ الأَرْضَ قِسْطًا وعَدْلًا، كما مُلِئَتْ ظُلْمًا وجَوْرًا»(١).

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنيا إلَّا يَوْمٌ»، مَعْنَاهُ: تحقُّق وُجُودُهُ وحُصُولُهُ، وأنَّهُ لا بُدَّ وأَنْ يَقَعَ، وفيهِ إشارةٌ ودَلالةٌ علىٰ أنَّهُ في آخِرِ الزَّمَانِ؛ لأنَّ قَوْلَهُ: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنيا إلَّا يَوْمٌ، لَطَوَّلَ اللهُ ذلك اليوم» مَعْنَىٰ ذلك: أنَّهُ سَيكُونُ في آخِرِ الزَّمَانِ، ولَيْسَ في أوَّلِ الزَّمَانِ.

قَوْلُهُ: «رَجُلًا مِنِّي - أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي -» يَعْنِي: أنَّهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ، وأَهْلُ بَيْتِ الرَّسُولِ ﷺ هُمْ: نَسْلُ عَبْدِ المُطَّلِبِ وذُرِّيَّتُهُ الَّذِينَ تَحْرُمُ عليهِمُ الصَّدَقَةُ، وَهُمْ: أَزْوَاجُهُ، وذُرِّيَّتُهُ، وكُلُّ مُسْلِمٍ ومُسْلِمَةٍ مِنْ نَسْلِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، ولكِنْ جاء في بَعْضِ الأحاديثِ: أنَّهُ مِنْ نَسْلِهِ ﷺ، وفيهِ أنَّهُ: «يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمَهُ، واسْمُ أَبِيهِ اسْمَ أبيه» يَعْنِي: اسْمُهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَهُوَ يَدُلُّ علىٰ خِلَافِ ما تَقُولُهُ الشِّيعةُ الرافضةُ مِنْ أنَّهُ مُحَمَّدُ بْنُ الحَسَنِ؛ لأنَّهُ قال: «يُواطِئُ اسْمُهُ اسْمِي، واسْمُ أبيهِ اسْمَ أبي»، وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، ولَيْسَ مُحَمَّدَ بْنَ الحَسَنِ.

---

(١) (حسن) أخرجه أبو داوُدَ (٤٢٨٢)، والتِّرمِذِيُّ (٢٢٣١)، وقال: حسنٌ صحيحٌ، وقال الألبانيُّ في «صحيح أبي داوُدَ» (٣٦٠١): حَسَنٌ.

«يَمْلَأُ الأَرْضَ عَدْلًا، كما مُلِئَتْ جَوْرًا وظُلْمًا»، وهذا فِيهِ بَيَانُ أنَّ ما قَبْلَ زَمَانِهِ كان فِيهِ الجَوْرُ والظُّلْمُ، ثُمَّ بَعْدَ مَجِيءِ زَمَانِهِ يَكُونُ العَدْلُ، وانتشارُ الخَيْرِ وظُهُورُهُ، وما جاء في هذا الحديثِ يَدُلُّ لَهُ قَوْلُهُ ﷺ في الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لا يَأْتِي عَامٌ إلَّا والَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»، وهذا لَيْسَ على إطْلَاقِهِ، فَقَدْ يَأْتِي زَمَنٌ أَحْسَنُ مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي قَبْلَهُ؛ ولهذا نقل الحافظُ ابْنُ حَجَرٍ في «فتح الباري» عَنِ ابْنِ حِبَّانَ: أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ هذا الحديثَ، قال: مَخْصُوصٌ بما جاء في أحاديثِ المَهْدِيِّ مِنْ أَنَّهُ يَمْلَأُ الأَرْضَ عَدْلًا، كما مُلِئَتْ جَوْرًا وظُلْمًا؛ ولهذا بَعْضُ النَّاسِ الَّذِينَ لَيْسَ لَدَيْهِمْ خِبْرَةٌ بنُصُوصِ السُّنَّةِ، وفَهْمٌ لها، واطِّلَاعٌ على أَلْفَاظِها وأحاديثِها - تَجِدُهُ يَقِفُ على مِثْلِ هذا الحديثِ؛ فَيَقْدَحُ في مَعْنَاهُ، ويَقُولُ: إنَّ هذا دَعْوَةٌ إلى الهَزِيمةِ، وما إلى ذلك مِنَ الكَلَامِ السَّاقِطِ[1].

---

(١) انظر «شرح سنن أبي داود» للعباد درس رقم (٤٨١).

الحديثُ الخامسُ والثلاثون

التَّحذيرُ مِنَ المسيحِ الدَّجَّالِ

عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ، مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ: أَحَدُهُمَا، رَأْيَ الْعَيْنِ، مَاءٌ أَبْيَضُ، وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ، فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا، وَلْيُغَمِّضْ، ثُمَّ لِيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ؛ فَيَشْرَبَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ، وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، عَلَيْهَا ظَفَرَةٌ غَلِيظَةٌ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ، يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ»[(١)].

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ، وَإِنَّ مَعَهُ مَاءً» أَيْ: وَمَا يَتَوَلَّدُ مِنْهُ مِنْ أَسْبَابِ النِّعَمِ، بِحَسَبِ الظَّاهِرِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْجَنَّةِ فِيمَا تَقَدَّمَ، يُرَغِّبُ إِلَيْهِ مَنْ أَطَاعَهُ، «وَنَارًا» أَيْ: مَا يَكُونُ ظَاهِرُهُ سَبَبًا لِلْعَذَابِ وَالْمَشَقَّةِ وَالأَلَمِ؛ يُخَوِّفُ بِهِ مَنْ عَصَاهُ، «فَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَنَارٌ تَحْرِقُ، وَأَمَّا الَّذِي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ» أَيْ: حُلْوٌ يَكْسِرُ الْعَطَشَ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَجْعَلُ نَارَهُ مَاءً بَارِدًا عَذْبًا عَلَى مَنْ كَذَّبَهُ، وَأَلْقَاهُ فِيهَا غَيْظًا، كَمَا جَعَلَ نَارَ نُمْرُوذَ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَيَجْعَلُ مَاءَهُ الَّذِي أَعْطَاهُ مَنْ صَدَّقَهُ نَارًا مُحْرِقَةً دَائِمَةً، وَمُجْمَلُهُ: أَنَّ مَا ظَهَرَ مِنْ فِتْنَتِهِ لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ، بَلْ تَخَيُّلٌ مِنْهُ وَشَعْبَذَةٌ، كَمَا يَفْعَلُهُ السَّحَرَةُ وَالْمُشَعْبِذُونَ، مَعَ احْتِمَالِ أَنَّ اللهَ - تَعَالَى - يَقْلِبُ نَارَهُ وَمَاءَهُ الحقيقيَّيْنِ؛ فَإِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. «فَمَنْ أَدْرَكَ

---

(١) رواه البخاريُّ بنحوِهِ (٣٤٥٠)، ومسلمٌ (٢٩٣٤).

ذَلِكَ» أَيِ: الدَّجَّالَ، أَوْ مَا ذُكِرَ مِنْ تَلْبِيسِهِ «مِنْكُمْ، فَلْيَقَعْ فِي الَّذِي يَرَاهُ نَارًا» أَيْ: فَلْيَخْتَرْ تَكْذِيبَهُ، وَلَا يُبَالِي بِإِيقَاعِهِ فِيمَا يَرَاهُ نَارًا؛ «فَإِنَّهُ مَاءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ» أَيْ: فِي الْحَقِيقَةِ، أَوْ بِالْقَلْبِ، أَوْ بِحَسَبِ الْمَالِ، وَاللهُ - تَعَالَى - أَعْلَمُ بِالْحَالِ، وَالْكَلَامُ مِنْ بَابِ الِاكْتِفَاءِ، فَالتَّقْدِيرُ: وَلَا يُصَدِّقْهُ مُغْتَرًّا بِمَا يَرَاهُ مَعَهُ مَاءً؛ فَإِنَّهُ نَارٌ وَعَذَابٌ وَحِجَابٌ، «وَإِنَّ الدَّجَّالَ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ» أَيْ: إِحْدَى مَوْضِعِ عَيْنَيْهِ مَمْسُوحٌ مِثْلَ جَبْهَتِهِ لَيْسَ لَهُ أَثَرُ الْعَيْنِ. قَالَ الْقَاضِي رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ: مَمْسُوحُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ لِلْحَدِيثِ السَّابِقِ وَنَظَائِرِهِ، «عَلَيْهَا» أَيْ: عَلَى الْعَيْنِ الْأُخْرَى، بِحَيْثُ لَا تُوَارِي الْحَدَقَةَ بِأَسْرِهَا لِتَغْمِيَهَا «ظَفَرَةٌ» - بِفَتْحَتَيْنِ - أَيْ: لَحْمَةٌ غَلِيظَةٌ، أَوْ جِلْدَةٌ عَلَى الْعَيْنِ الْمَمْسُوحَةِ ظَفَرَةٌ، «مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ» كَمَا سَبَقَ، «يَقْرَأُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ»: بِالْجَرِّ بَدَلًا مِنْ مُؤْمِنٍ، وَفِي نُسْخَةٍ بِالرَّفْعِ بَدَلَ بَعْضٍ مِنْ كُلٍّ، «وَغَيْرِ كَاتِبٍ»، وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعًا: «الدَّجَّالُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كَافِرٌ، يَقْرَأُهُ كُلُّ مُسْلِمٍ»[1].

---

(١) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٨/ ٣٤٥٦).

الحديث السادس والثلاثون

نُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ حاكمًا بشريعةِ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ

عن أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ؛ حَتَّىٰ لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا». ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَءُوا - إِنْ شِئْتُمْ -: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩][1].

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «فِيكُم» خِطَابٌ لِهَذِهِ الأُمَّةِ، قَوْلُهُ: «حكمًا» أيْ: حَاكمًا بِهَذِهِ الشَّرِيعَةِ؛ فَإِنَّ شَرِيعَةَ النَّبِيِّ ﷺ لا تُنْسَخُ، وَفِي رِوَايَةِ اللَّيْثِ ابْنِ سَعْدٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ: «حكمًا مُقسطًا»، وَلَهُ فِي رِوَايَةٍ: «إمَامًا مُقْسِطًا» أيْ: عادلًا، والقاسِطُ: الجائِرُ. قَوْلُهُ: «وَيقتلَ الْخِنْزِيرَ»، وَوَقع فِي رِوَايَةِ الطَّبَرَانِيِّ: «ويَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ والقِرَدَةَ»، قَوْلُهُ: «وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ». هَذِهِ رِوَايَةُ الْكُشْمِيهَنِيِّ، وَفِي رِوَايَةِ غَيْرِهِ: «وَيَضَعَ الْحَرْبَ» وَالْمَعْنَىٰ: أَنَّ الدِّينَ يَصِيرُ وَاحِدًا؛ لِأَنَّ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَا يَقْبَلُ إِلَّا الْإِسْلَامَ، فَإِنْ قُلْتَ: وَضْعُ الْجِزْيَةِ مَشْرُوعٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ فَلِمَ لَا يَكُونُ الْمَعْنَىٰ: تُقَرَّرُ الْجِزْيَةُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ مِنْ غَيْرِ مُحَابَاةٍ؛ فَلِذَلِكَ يَكْثُرُ المَالُ؟ قُلْتُ: مَشْرُوعِيَّةُ الْجِزْيَةِ مُقَيَّدَةٌ بِنُزُولِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لَا يَقْبَلُ إِلَّا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٤٨)، ومسلم (١٥٥).

الْإِسْلَامَ، وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: وَإِنَّمَا قَبِلْنَاها قَبْلَ نُزُولِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِلْحَاجَةِ إِلَىٰ المَالِ بِخِلَافِ زَمَنِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -؛ فَإِنَّهُ لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَىٰ المَالِ؛ فَإِنَّ المَالَ يَكْثُرُ؛ حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ.

قَوْلُهُ: «وَيفِيضَ المَالُ» - بِفَتْحِ الْيَاءِ، وَكَسْرِ الْفَاءِ، وبالضَّادِ الْمُعْجَمَةِ - أَيْ: يَكْثُرَ، وَأَصْلُهُ: مِنْ فاضَ المَاءُ، وَفِي رِوَايَةِ عطاءِ بْنِ مِينا: «وَلَيُدْعَوُنَّ إِلَىٰ المَالِ، فَلَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ»، وَسَبَبُهُ كَثْرَةُ المَالِ، ونُزُولُ البَرَكاتِ، وتوالي الْخَيْرَاتِ بِسَبَبِ الْعدلِ وَعَدَمِ الظُّلْمِ، وَحِينَئِذٍ تُخرِجُ الأَرْضُ كُنُوزَها، وتَقِلُّ الرَّغَباتُ فِي اقْتِنَاءِ المَالِ؛ لِعِلْمِهِمْ بِقُرْبِ السَّاعَةِ. قَوْلُهُ: «حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»؛ لأَنَّهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَتَقَرَّبُونَ إِلَىٰ اللهِ إِلَّا بالعباداتِ لَا بِالتَّصَدُّقِ بِالْمَالِ. فَإِن قُلْتَ: السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ دَائِمًا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا؛ لِأَنَّ الْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ. قُلْتُ: الْغَرَضُ أَنَّهَا خَيْرٌ مِنْ كُلِّ مَالِ الدُّنْيَا؛ إِذْ حِينَئِذٍ لَا يُمْكِنُ التَّقَرُّبُ إِلَىٰ اللهِ - تَعَالَىٰ - بِالْمَالِ، وَقَالَ التُّورِبُشْتِيُّ: يَعْنِي أَنَّ النَّاسَ يَرْغَبُونَ عَنِ الدُّنْيَا، حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. قَوْلُهُ: «ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ» إِلَىٰ آخِرِهِ، مَوْصُولٌ بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُورِ. قَوْلُهُ: «واقرءوا إِن شِئْتُم» قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: إِنَّمَا أَتَىٰ بِذِكْرِ هَذِهِ الآيَةِ لِلْإِشَارَةِ إِلَىٰ مُنَاسَبَتِهَا لِقَوْلِهِ: «حَتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»، فَإِنَّهُ يُشِيرُ بذلك إِلَىٰ صَلَاحِ النَّاسِ، وَشِدَّةِ إِيمَانِهِمْ، وإِقْبالِهِمْ علىٰ الْخَيْرِ؛ فَهُمْ لِذَلِكَ يُؤْثِرُونَ الرَّكْعَةَ الْوَاحِدَةَ علىٰ جَمِيعِ الدُّنْيَا. والسَّجْدَةُ تُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهَا الرَّكْعَةُ. وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: معنىٰ الحَدِيثِ: أَنَّ الصَّلَاةَ - حِينَئِذٍ - تَكُونُ أَفضلَ مِنَ الصَّدَقَةِ؛ لِكَثْرَةِ المَالِ إِذْ ذَاكَ، وعَدَمِ الانْتِفَاعِ به حَتَّىٰ لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ. قَوْلُهُ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ كلمةُ: (إِنْ) نَافِيَة، يعْنِي: ما مِنْ أَهْلِ الْكتابِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ.

وَاخْتَلَفَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ فِي مَرْجِعِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿بِهِۦ﴾ فَرَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ سعيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنْهُمَا -: إِنَّهُ يَرْجِعُ إِلَىٰ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَكَذَا رُوِيَ مِنْ طَرِيقِ أَبِي رَجَاءٍ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ، وَاللهِ إِنَّهُ لَحَيٌّ، وَلَكِنْ إذا نَزَلَ آمنُوا به أَجْمَعُونَ، وذهب إِلَيْهِ أكثرُ أَهْلِ الْعِلْمِ، ورَجَّحَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، وَأَبُو هُرَيْرَة - أَيْضًا - صار إِلَيْهِ؛ فقراءتُهُ هَٰذِهِ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ تَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: يَعُودُ الضَّمِيرُ إِلَىٰ اللهِ. وَقِيلَ: إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ يَرْجِعُ إِلَىٰ أَهْلِ الْكتابِ عِنْدَ الأَكْثَرِينَ؛ لِمَا رَوَىٰ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «لَا يَمُوتُ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ حَتَّىٰ يُؤْمِنَ بِعِيسَىٰ». فَقَالَ لَهُ عِكْرِمَةُ: أَرَأَيْتَ إِنْ خَرَّ مِنْ بَيْتٍ، أَوِ احْتَرَقَ، أَوْ أَكَلَهُ السَّبُعُ؟ قَالَ: «لَا يَمُوتُ حَتَّىٰ يُحَرِّكَ شَفَتَيْهِ بِالْإِيمَانِ بِعِيسَىٰ». وَفِي إِسْنَادِهِ: خُصَيْفٌ، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وَرَجَّحَ جَمَاعَةٌ هَٰذَا الْمَذْهَبَ لِقِرَاءَةِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ - رَضِيَ اللهُ تَعَالَىٰ عَنهُ -: «إِلَّا لَيُؤْمِنُن بِهِ قبل مَوْتِهِمْ» أَيْ: قَبْلَ مَوْتِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقِيلَ: يَرْجِعُ إِلَىٰ عِيسَىٰ، أَيْ: إِلَّا ليُؤْمِنن بِهِ قَبْلَ مَوْتِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَلَكِنْ لَا ينفعُ هَٰذَا الإِيمَانُ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ.

فَإِن قُلْتَ: مَا الْحِكْمَةُ فِي نُزُولِ عِيسَىٰ - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -، والخُصُوصيَّةُ بِهِ؟ قُلْتُ: فِيهِ وُجُوهٌ:

الأَوَّلُ: للرَّدِّ على الْيَهُودِ فِي زَعْمِهِمُ الْبَاطِلِ أَنَّهمْ قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ، فبيَّن اللهُ - تَعَالَىٰ - كَذِبَهُمْ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْتُلُهُمْ.

الثَّانِي: لِأَجْلِ دُنُوِّ أجَلِهِ لِيُدْفَنَ فِي الأَرْضِ، إِذْ لَيْسَ لِمَخْلُوقٍ مِنَ التُّرَابِ أَنْ يَمُوتَ فِي غَيْرِ التُّرَابِ.

الثَّالِث: لِأَنَّهُ دَعَا الله - تَعَالَىٰ - لمَّا رَأَىٰ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأُمَّتِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنْهُمْ، فَاسْتَجَابَ اللهُ دُعَاءَهُ، وأبقاهُ حيًّا؛ حَتَّىٰ يَنْزِلَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، ويُجَدِّدَ أَمْرَ الْإِسْلَامِ، فيوافقَ خُرُوجَ الدَّجَّالِ، فيقتُلَهُ.

الرَّابع: لتكذيبِ النَّصارَىٰ، وَإِظْهَارِ زَيْفِهِمْ فِي دَعْوَاهُمُ الأباطيلَ، وَقَتْلَهُ إِيَّاهُم.

الْخَامِس: أَنَّ خُصُوصِيَّتَهُ بالأمورِ الْمَذْكُورَة لقَوْلِهِ ﷺ: «أنا أولَىٰ النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ؛ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ»[1]. وَهُوَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ فِي الزَّمَانِ، وَهُوَ أَوْلَىٰ بذلك[2].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٢) «عمدةُ القاري شرح صحيح البخاري» (١٦/ ٣٩) بدر الدِّين العينيُّ.

الحديث السابع والثلاثون

القبر عذابه ونعيمه

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ، فَيُقَالُ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟، فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»(١).

الشَّرْحُ:

اعلمْ أنَّ المَيِّتَ إذا وُضِعَ في القَبرِ، تُنفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، ويُقعَدُ حَيًّا كما كان في الدُّنيا قاعدًا، وَأتاهُ مَلكانِ مِنْ عِندِ اللهِ - تعالىٰ -، فيَسألانِهِ عَنْ رَبِّهِ، وعَنْ نبيِّهِ، وعَنْ دِينِهِ، فإنْ كان مُسْلمًا، أزالَ اللهُ - تعالىٰ - الخَوْفَ عَنْهُ، وأثبتَ لِسانَهُ في جَوابِهِمَا، فيُجيبُهُما عمَّا يَسْألانِهِ، وأمَّا الكافِرُ فَغَلَبَ عَلَيْهِ الخَوْفُ، ولا يَقْدِرُ علىٰ جوابِهِمَا، فيكونُ مُعذَّبًا في القَبرِ.

قَوْلُهُ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أيْ: يُجْرِي اللهُ - تعالىٰ - لِسَانَ المُسْلِمينَ ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: وَهُوَ كلمةُ الشَّهادةِ، ويُدِيمُهُمْ علىٰ الحَقِّ ما داموا في الدُّنيا.

قَوْلُهُ: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَعْني: في القَبْرِ - أيضًا - يُجْرِي لِسانَهُمْ بكلمةِ الشَّهادةِ؛ لِيُجيبوا المَلَكَيْنِ، ولَيْسَ المُرادُ مِنَ (الآخرةِ) ها هنا: يَوْمَ القيامةِ؛ لأنَّ قَوْلَ كلمةِ الشَّهادةِ لا يَنْفَعُ يَوْمَ القيامةِ، بَلِ المُرادُ مِنْهُ: القَبْرُ.

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١)، واللَّفظُ لَهُ.

قَوْلُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ ... ﴾ إلىٰ آخِرِهِ يَعْنِي: نَزَلَتْ هذِهِ الآيةُ في حقِّ المُؤمنينَ، في جوابِهِمُ المُنْكَرَ والنَّكِيرَ فِي القَبْرِ، يَعْني: يَسَّرَ اللهُ - تعالىٰ - عليهم جَوابَ المُنْكَرِ والنَّكِيرِ فِي القَبْرِ، كما يسَّرَ عَلَيْهِمْ قَوْلَ كَلِمَتَي الشَّهادةِ في الدُّنيا، والعَمَلَ الصَّالِحَ[1].

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ: «مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ إِثْبَاتُ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَقَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَيْهِ الأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. قَالَ - تَعَالَىٰ -: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٦]. وَأَمَّا الأَحَادِيثُ فَلَا تُحْصَىٰ كَثْرَةً، وَلَا مَانِعَ فِي الْعَقْلِ مِنْ أَنْ يُعِيدَ اللهُ الْحَيَاةَ فِي جُزْءٍ مِنَ الْجَسَدِ، أَوْ فِي الْجَمِيعِ عَلَىٰ خِلَافٍ بَيْنَ الأَصْحَابِ، فَيُثِيبُهُ وَيُعَذِّبُهُ، وَلَا يَمْنَعُ مِنْ ذَلِكَ كَوْنُ الْمَيِّتِ قَدْ تَفَرَّقَتْ أَجْزَاؤُهُ، كَمَا يُشَاهَدُ فِي الْعَادَةِ، أَوْ أَكَلَتْهُ السِّبَاعُ وَالطُّيُورُ وَحِيتَانُ الْبَحْرِ؛ لِشُمُولِ عِلْمِ اللهِ - تَعَالَىٰ - وَقُدْرَتِهِ. فَإِنْ قِيلَ: نَحْنُ نُشَاهِدُ الْمَيِّتَ عَلَىٰ حَالِهِ، فَكَيْفَ يُسْأَلُ، وَيُقْعَدُ، وَيُضْرَبُ، وَلَا يَظْهَرُ أَثَرٌ؟! فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ مُمْكِنٌ، وَلَهُ نَظِيرٌ فِي الشَّاهِدِ وَهُوَ النَّائِمُ، فَإِنَّهُ يَجِدُ لَذَّةً وَأَلَمًا يُحِسُّهُ وَلَا نُحِسُّهُ، وَكَذَا يَجِدُ الْيَقْظَانُ لَذَّةً وَأَلَمًا يَسْمَعُهُ وَيَتَفَكَّرُ فِيهِ، وَلَا يُشَاهِدُ ذَلِكَ جَلِيسُهُ، وَكَذَلِكَ كَانَ جِبْرِيلُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ، فَيُوحِي بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ، وَلَا يَرَاهُ أَصْحَابُهُ»[2].

---

(١) «المفاتيحُ في شَرْحِ المصابيح» (١/ ٢١٩) للمُظْهِرِيِّ.

(٢) انظر: «شَرْحَ النَّوويِّ عَلَىٰ مُسْلمٍ» (١٧/ ٢٠٠).

الحديث الثامن والثلاثون

مَصِيرُ أَعْمَالِ الكافِرِ بَعْدَ المَوْتِ

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «لا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»[١].

الشَّرْحُ:

قال النَّوويُّ رحمه الله: «مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ مَا كَانَ يَفْعَلُهُ مِنَ الصِّلَةِ، وَالْإِطْعَامِ، وَوُجُوهِ الْمَكَارِمِ لَا يَنْفَعُهُ فِي الْآخِرَةِ؛ لِكَوْنِهِ كَافِرًا، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «لَمْ يَقُلْ: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ» أَيْ: لَمْ يَكُنْ مُصَدِّقًا بِالْبَعْثِ، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِهِ كَافِرٌ، وَلَا يَنْفَعُهُ عَمَلٌ، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: وَقَدِ انْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَا تَنْفَعُهُمْ أَعْمَالُهُمْ، وَلَا يُثَابُونَ عَلَيْهَا بِنَعِيمٍ وَلَا تَخْفِيفِ عَذَابٍ، لَكِنَّ بَعْضَهُمْ أَشَدُّ عَذَابًا مِنْ بَعْضٍ بِحَسَبِ جَرَائِمِهِمْ. هَذَا آخِرُ كَلَامِ الْقَاضِي، وَذَكَرَ الْإِمَامُ الْحَافِظُ الْفَقِيهُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِهِ «الْبَعْثُ وَالنُّشُورُ» نَحْوَ هَذَا عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالنَّظَرِ، قَالَ الْبَيْهَقِيُّ: وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثُ ابْنِ جُدْعَانَ، وَمَا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ فِي بُطْلَانِ خَيْرَاتِ الْكَافِرِ إِذَا مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ - وَرَدَ فِي أَنَّهُ لَا يَكُونُ لَهَا مَوْقِعُ التَّخَلُّصِ مِنَ النَّارِ، وَإِدْخَالِ الْجَنَّةِ، وَلَكِنْ يُخَفَّفُ عَنْهُ مِنْ عَذَابِهِ الَّذِي يَسْتَوْجِبُهُ عَلَى جِنَايَاتٍ ارْتَكَبَهَا سِوَى الْكُفْرِ بِمَا فَعَلَ مِنَ الْخَيْرَاتِ. هَذَا كَلَامُ الْبَيْهَقِيِّ،

---

(١) رواه مسلم (٢١٤).

قال العُلَماءُ: وكان ابنُ جُدْعَانَ كَثِيرَ الإِطْعَامِ، وَكَانَ اتَّخَذَ لِلضِّيفَانِ جَفْنَةً، يُرْقَى إِلَيْهَا بِسُلَّمٍ، وَكَانَ مِنْ بَنِي تَمِيمِ بْنِ مُرَّةَ أَقْرِبَاءِ عَائِشَةَ ﵂، وَكَانَ مِنْ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللهِ، وَجُدْعَانُ بِضَمِّ الْجِيمِ، وَإِسْكَانِ الدَّالِ الْمُهْمَلَةِ، وَبِالْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ، وَأَمَّا صِلَةُ الرَّحِمِ: فَهِيَ الإِحْسَانُ إِلَى الأَقَارِبِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُهَا، وَأَمَّا الْجَاهِلِيَّةُ فَمَا كَانَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، سُمُّوا بِذَلِكَ؛ لِكَثْرَةِ جَهَالَاتِهِمْ، والله - تعالىٰ - أَعْلَمُ»[1].

---

(١) «شَرْحُ النَّوويّ على مُسْلِمٍ» (٣/ ٨٧).

الحديثُ التاسِعُ والثّلاثونَ

تشرِيفُ المؤمنين بكلامِ ربِّ العالَمين

عن عَدِيِّ بْنِ حاتِمٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلَا يَرَىٰ إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وفي روايةٍ: «مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَتِرَ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ»[١].

الشَّرْحُ:

قَوْلُهُ: «ما مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ» الخِطَابُ للصَّحابةِ، وَيَتَنَاوَلُ جَمِيعَ المُؤْمنينَ، سابِقِهِمْ ولاحِقِهِمْ، بَرِّهِمْ وفاجِرِهِمْ إلىٰ قيامِ السَّاعةِ.

والتُّرجمانُ: هُوَ الواسِطةُ بَيْنَ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، الَّذي يَنْقُلُ الكلامَ مِنْ لُغَةٍ إلىٰ أُخْرَىٰ، أَوْ يُبَلِّغُ عَنِ المُتَكَلِّمِ كَلَامَهُ.

والمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ وربِّهِ أَحَدٌ يُبَلِّغُهُ عَنْهُ، لا مِنَ الملائكةِ، ولا مِنَ البَشَرِ، بَلِ اللهُ - تعالىٰ - هُوَ الَّذي يتولَّىٰ كلامَ عِبَادِهِ في ذلك الموقفِ بِنَفْسِهِ، فيحاسِبُهُمْ علىٰ أعْمَالِهِمْ، وَقَدْ بيَّنَ ذلك في لَفْظِ الحَدِيثِ، لكنَّ الإمامَ البخاريَّ رحمه الله اخْتَصَرَهُ، واقْتَصَرَ علىٰ مَحَلِّ الشَّاهِدِ مِنْهُ، وَلَفْظُهُ: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ، فشكا إليهِ الفَاقَةَ، ثُمَّ أتاهُ آخَرُ، فشكا إليهِ قَطْعَ السَّبِيلِ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٠٠٥)، ومسلمٌ (١٠١٦).

فقال: «يا عَدِيُّ، هَلْ رأيْتَ الحِيرَةَ؟» قُلْتُ: لَمْ أرَهَا، وَقَدْ نُبِّئْتُ عَنْهَا.

قال: «فإنْ طالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ[1] تَرْتَحِلُ مِنَ الحِيرَةِ[2]، حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ أَحَدًا إلَّا اللهَ - قُلْتُ فيما بَيْني وبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَّارُ طَيِّئٍ[3] الَّذِينَ سعَّرُوا البِلَادَ؟[4] - وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى» قُلْتُ: كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ؟ قال: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ. وَلَئِنْ طالَتْ بِكَ الحياةُ، لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنَ الذَّهَبِ أَوِ الفِضَّةِ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيَنَّ اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إليك رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فيقولُ: بَلَى. فيقولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مالًا، وأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فيقولُ: بَلَى. فينظرُ عَنْ يَمِينِهِ، فلا يَرَى إلَّا جَهَنَّمَ، ويَنْظُرُ عَنْ يَسارِهِ، فلا يَرَى إلَّا جَهَنَّمَ». قال عَدِيٌّ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يقولُ: «اتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّ تَمرةٍ فَبِكلمةٍ طَيِّبَةٍ».

قال عَدِيٌّ: فرأيتُ الظَّعِينةَ ترتحلُ مِنَ الحِيرةِ، حتَّى تَطُوفَ بالكَعْبَةِ، لا تَخَافُ إلَّا اللهَ، وَكُنْتُ فِيمَنِ افتتح كُنُوزَ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ، وَلَئِنْ طَالَتْ بِكُمْ حَيَاةٌ، لَتَرَوُنَّ ما قال النَّبِيُّ ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»[5].

---

(١) الظَّعينة: الهَوْدَجُ فِيهِ المرأةُ، وَهُوَ شِبْهُ الغُرْفَةِ الصَّغِيرةِ، يُوضَعُ فَوْقَ البَعِيرِ، فتركبُ في وَسَطِهِ المرأةُ لِيَسْتُرَهَا، والظَّعْنُ هُوَ: الخُرُوجُ مِنَ المَكَانِ والسَّيْرِ.

(٢) الحِيرة - بالكسر -: بلد ملوك العرب الَّذي تَحْتَ حُكْمِ فارس.

(٣) الدعار - بضمِّ أوَّلِهِ، وفَتْحِ ثانيه مُشَدَّدًا -: جَمْعُ داعِرٍ، وهو الخبيثُ المُفْسِدُ الفاسِقُ، مَأْخُوذٌ مِنَ الدَّعارةِ، والمُرادُ: قُطَّاعُ الطَّرِيقِ.

(٤) سَعَّرُوا البلادَ: أوقدوا نارَ الفِتْنَةِ فيها.

(٥) انظر البخاريُّ (٦/ ١١٠)، وانظر «فتح الباري» (٦/ ٦١٠).

وفي روايةٍ: كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فجاء رَجُلَانِ: أَحَدُهُما يَشْكُو العَيْلَةَ(١)، والآخَرُ يَشْكُو قَطْعَ السَّبِيلِ. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا قَطْعُ السَّبِيلِ فإنَّهُ لا يأتي عَلَيْكَ إلَّا قَلِيلٌ، حتَّىٰ تَخْرُجَ العِيرُ إلىٰ مكَّةَ بغَيْرِ خَفِيرٍ(٢). وأمَّا العَيْلَةُ فإنَّ السَّاعةَ لا تَقُومُ، حتَّىٰ يَطُوفَ أَحَدُكُمْ بصَدَقَتِهِ، لا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُها مِنْهُ.

ثُمَّ لَيَقِفَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ حِجَابٌ، ولا تُرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أُوتِكَ مالًا؟، فَلَيَقُولَنَّ: بَلَىٰ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُرْسِلْ إليك رَسُولًا؟ فَلَيَقُولَنَّ: بَلَىٰ، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ، فلا يَرَىٰ إلَّا النَّارَ، ثُمَّ يَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ، فلا يَرَىٰ إلَّا النَّارَ، فَلْيَتَّقِيَنَّ أَحَدُكُمُ النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرةٍ، فإنْ لَمْ يَجِدْ فبكلمةٍ طَيِّبَةٍ»(٣).

ففي هاتَيْنِ الرِّوايتَيْنِ بيانٌ جَلِيٌّ بأنَّ اللهَ - تعالىٰ - يتولَّىٰ كلامَ عِبادِهِ ومُحَاسَبَتَهُمْ بنَفْسِهِ، بدُونِ واسطةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وفي ضِمْنِ ذلك رُؤْيَتُهُ - تعالىٰ - وسماعُ كَلَامِهِ.

قَوْلُهُ: «ولا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ» أي: لَيْسَ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ رَبِّهِ ما يَمْنَعُ رُؤْيَتَهُ ومُشَاهَدَتَهُ. وهذا ظاهرُ الدلالةِ علىٰ رُؤْيَةِ المُؤْمِنِ رَبَّهُ يَوْمَ يُحَاسِبُهُ، وعلىٰ سماعِهِ كَلَامَهُ(٤).

---

(١) العَيْلَةُ - بالفتح -: الفَقْرُ والفاقةُ.

(٢) الخَفِير: هُوَ مَنْ يَحْمِي سَالِكَ الطَّرِيقِ، ويُجِيرُهُ مِمَّنْ يُرِيدُهُ بسوءٍ.

(٣) انظر «صحيح البخاري» (١٤١٣) مع الفتح (٣/ ٢٨١).

(٤) انظر «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاريِّ» (٢/ ١٥٠ - ١٥٢) عبد الله بن محمد الغنيمان.

الحديثُ الأربعون

الشَّفاعةُ

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي»(١).

الشَّرْحُ:

دلَّ الحديثُ علىٰ إِثْبَاتِ الشَّفَاعَةِ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ: وَهِيَ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ، قَالَ: وَأَجْمَعُوا عَلَىٰ أَنَّ قَوْلَهُ - تَعَالَىٰ -: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء: ٧٩] هُوَ الشَّفَاعَةُ فِي الْمُذْنِبِينَ مِنْ أُمَّتِهِ(٢).

وقال العبَّادُ - حفظه الله -: «وأَنْكَرَ الشَّفَاعةَ لأَهْلِ الكَبَائِرِ المُعْتَزِلَةُ والخَوَارِجُ؛ فقالوا: إِنَّهُمْ مُخَلَّدون في النارِ، والأحاديثُ تَرُدُّ عليهم.

الشَّفَاعَةُ - في الأَصْلِ - هي: طَلَبُ شَخْصٍ مِنْ آخَرَ أَنْ يَشْفَعَ لَهُ في تَحْصِيلِ خَيْرٍ، وذلك أَنَّ الشَّافِعَ يَضُمُّ صَوْتَهُ إلىٰ طالبِ الحَقِّ، فيكونانِ شَفْعًا بَعْدَ أن كان الطَّالِبُ مُفْرَدًا، ويَكُونُ طَلَبُهُ قَدْ عُزِّزَ وأُيِّدَ، وسُوعِدَ في الوُصُولِ إلىٰ ما يُرِيدُ. وهي: طَلَبُ الخَيْرِ للغَيْرِ، حَيْثُ يَطْلُبُ إنسانٌ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَطْلُبَ خَيْرًا لَهُ، فيفعلُ.

والشفاعةُ شفاعَتَانِ: شفاعةٌ محمودةٌ، وشفاعةٌ مَذْمُومةٌ.

---

(١) (صحيح) أخرجه أحمدُ (٣/ ٢١٣) (١٣٢٥٤)، وأبو داوُدَ (٤٧٣٩)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٣٧١٤). وحَسَّنَ شيخُنا الوادعيُّ بَعْضَ أسانيدِهِ، وذكر له شواهدَ عَنْ جابرٍ، وابْنِ عُمَرَ، كما في «الشفاعة» (٩٠).

(٢) «شرح الزُّرْقَانيِّ علىٰ المُوَطَّإِ» (٢/ ٤٢).

فالشفاعةُ المَحْمُودةُ هِيَ: الَّتي تكُونُ في الدُّنيا بطَلَبِ الإنسانِ فيما يَقْدِرُ عليه، ليحصِّلَ خيرًا دُنيويًّا أو أُخرَوِيًّا.

وفي الآخرةِ بالطَّلَبِ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ بأنْ يَشْفَعَ في الموقفِ، أو في الخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، أو في دُخُولِ الجنَّةِ، أو في غَيْرِ ذلك مِنْ أنواعِ الشَّفاعةِ، وهي تَحْصُلُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ وغَيْرِهِ بالنِّسبةِ للخُرُوجِ مِنَ النَّارِ، وأمَّا بالنِّسبةِ لفَصْلِ القَضَاءِ فهي خاصَّةٌ بِهِ ﷺ.

وأمَّا الشَّفاعةُ المَذْمُومةُ المُحرَّمةُ فَهِيَ: مِثْلُ ما يَطْلُبُهُ الكُفَّارُ مِنْ آلِهَتِهِمْ، وما يُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ممَّا لا يَجُوزُ الطَّلَبُ مِنْهُ: كالطَّلَبِ مِنَ الأمواتِ بأنْ يَشْفَعُوا.

والشفاعةُ لها أنواعٌ عَدِيدةٌ، منها: الشَّفاعةُ العُظْمَىٰ: وهي مِنْ خَصَائصِ نبيِّنا مُحمَّدٍ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، فإنَّهُ اختصَّ بها، وذلك أنَّ النَّاسَ إذا كانوا في الموقفِ، ماج بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ، فيبحثون عمَّنْ يَشْفَعُ لهم إلىٰ ربِّهِمْ؛ ليأتيَ لفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَهُمْ، فَيأْتُونَ آدَمَ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -، ثُمَّ نُوحًا، ثُمَّ إبراهيمَ، ثُمَّ مُوسَىٰ، ثُمَّ عِيسَىٰ، ثُمَّ يَطْلُبُوها مِنْ نبيِّنا مُحمَّدٍ ﷺ.

والشُّفعاءُ الَّذين قَبْلَ نبيِّنا مُحمَّدٍ - عليه الصَّلاةُ والسلامُ - يَعْتَذِرُونَ، وكُلُّ واحدٍ يُحِيلُهُمْ إلىٰ مَنْ بَعْدَهُ، فإذا وَصَلَتْ إلىٰ عِيسَىٰ اعْتَذَرَ، وأحال إلىٰ نبيِّنا مُحمَّدٍ - عليه الصلاةُ والسلامُ -، فيتقدَّمُ ويَشْفَعُ، ويُشَفِّعُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، ويأتي لفَصْلِ القَضَاءِ بَيْنَ عِبادِهِ، ويُحَاسِبُ النَّاسَ، ويَذْهَبُونَ إلىٰ مَنَازِلِهِمْ مِنَ الجنَّةِ أوِ النَّارِ.

وهذِهِ الشَّفاعةُ العُظْمَىٰ، وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ، وهي عامَّةٌ للبَشَرِ كُلِّهِمْ مِنْ أوَّلِهِمْ إلىٰ آخِرِهِمْ؛ ولهذا قال النَّبيُّ - عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ - في الحديثِ الدَّالِّ عليها: «أنا سيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القيامةِ»[1]، ثُمَّ بَيَّنَ السَّبَبَ في ذلك، وذَكَرَ هذِهِ الشَّفاعةَ.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

وإنَّما كان سيِّدَهُمْ، وخَصَّ يَوْمَ القيامةِ بِذِكْرِ السِّيادةِ؛ لأنَّهُ يَظْهَرُ في ذلك اليَوْمِ سُؤْدَدُهُ على الجَمِيعِ، حَيْثُ يَشْفَعُ للجميعِ، ويستفيدُ الجميعُ مِنْ شَفَاعَتِهِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى الَّذينَ قامتْ عليهمُ السَّاعةُ؛ ولهذا يُقالُ لَها: المَقَامُ المَحْمُودُ؛ لأنَّه مقامٌ يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ الأوَّلون والآخِرُونَ، صلواتُ اللهِ وسلامُهُ وبركاتُهُ عليه.

وأيضًا مِنْ شفاعاتِهِ ﷺ الَّتي اختصَّ بها: شفاعتُهُ في عَمِّهِ أبي طالبٍ في أنْ يُخَفِّفَ عَنْهُ العَذَابُ، فصار أخَفَّ أهْلِ النَّارِ عذابًا، وَهُوَ يَرى أنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ أحَدٌ أشَدُّ مِنْهُ، وذلك أنَّهُ خُفِّفَ عَنْهُ العَذَابُ، فكان في ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ[1]، أوْ لَهُ نَعْلانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ.

فالنبيُّ ﷺ شَفَعَ لَهُ؛ فَخُفِّفَ عَنْهُ العَذَابُ، فصار في ضَحْضَاحٍ مِنْ نارٍ، ولَوْلا شفاعةُ النَّبيِّ ﷺ لكان في الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ، مَعَ الكُفَّارِ الَّذين هُمْ أمْثَالُهُ.

وَقَدْ قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨] أيْ: الكُفَّار، وهذا الحديثُ يَدُلُّ على حُصُولِ النَّفْعِ لأبي طالبٍ، ولكنْ هذِهِ شفاعةٌ خاصَّةٌ، تُسْتَثْنَى مِنْ هذا النَّفْيِ في قَوْلِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

ثُمَّ إنَّ النَّفْعَ الَّذي اسْتُثْنِيَ مِنْ هذِهِ الآيةِ إنَّما هُوَ في التَّخْفيفِ، وأمَّا الإخراجُ فإنَّها باقيةٌ على عُمُومِهَا؛ فلا يَخْرُجُ كافرٌ مِنَ النَّارِ، ويَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَلِ الكُفَّارُ باقُونَ في النَّارِ أبَدَ الآبادِ، ولكنَّها نَفَعَتْ في التَّخْفيفِ.

---

(١) ضحضاح من نار: فيه استعارةٌ؛ فإنَّ الضَّحْضاحَ مِنَ الماء: ما يبلغُ الكَعْبَ، ومن نوادرِ السُّهَيْليِّ قولُهُ: «الحكمةُ فيه: أنَّ أبا طالبٍ كان تابعًا لرسولِ اللهِ ﷺ بجُمْلَتِهِ، إلَّا أنَّه استمرَّ ثابتَ القَدَمِ على دِينِ قَوْمِهِ؛ فَسُلِّطَ العذابُ على قَدَمَيهِ خاصَّةً؛ لتثبيتِهِ إيَّاهما على دِينِ قَوْمِهِ». «الروض الأنف» (٢/ ١٧٠).

فإذًا يكونُ الجَمْعُ بَيْنَ ما ورد فِي القُرْآنِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، وبَيْنَ ما جاء مِنْ شفاعتِهِ لأبي طالبٍ: أَنَّ هذِهِ شَفَاعةٌ خاصَّةٌ، أُخرِجَتْ مِنْ ذلك العَامِّ، ولكنْ بالنِّسبةِ للتَّخفيفِ، وليس للإخراجِ»(١).

(١) «شرح سنن أبي داوُدَ» (٥٧٣/ ٣) عبد المحسن العباد البدر دروس صوتية، قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلاميَّة [الكتاب مرقم آليًا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - ٥٩٨ درسًا].

الحديثُ الحادي والأربعُونَ

وَصْفُ حَوْضِ النَّبيِّ ﷺ

عن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ما بَيْنَ ناحِيَتَيْ حَوْضِي كما بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَىٰ صَنْعَاءَ مَسِيرةَ شَهْرٍ، عَرْضُهُ كطُولِهِ، فيه مِزْرَابانِ[(١)] يَنْثَعِبانِ مِنَ الجَنَّةِ، مِن وَرِقٍ وذَهَبٍ، أبيضُ من اللَّبَنِ، وأَحْلَىٰ مِنَ العَسَلِ، وأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، فِيهِ أباريقُ عَدَدَ نُجُومِ السَّماءِ»[(٢)].

الشَّرْحُ:

وردتْ أحاديثُ عديدةٌ تُشِيرُ إلىٰ مسافةِ الحَوْضِ وَسَعَتِهِ، فَمِنْ هذِهِ الأحاديثِ:

عَنْ أنسِ بْنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ وَصَنْعَاءَ مِنَ اليَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ»[(٣)].

وحَديثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العاصِ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا»[(٤)].

---

(١) الواحد: مِزْرَاب، والجَمْعُ مَزَارِيبُ، وهو المِيزابُ (قَنَاةٌ، أو أُنبوبةٌ تَصْرِفُ الماءَ مِنْ سَطْحِ البِنَاءِ، أَوْ مِنْ مَكَانٍ عالٍ).

(٢) (حسن) أخرجه ابنُ حبَّانَ في «صحيحه» (٦٤٤٩)، وقال الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٧٢٢): حسنٌ صحيحٌ.

(٣) رواه البخاريُّ (٦٠٩٤) واللَّفْظُ لَهُ، ومسلمٌ (٤٢٥٨).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٠٩٣) واللَّفْظُ لَهُ، ومسلمٌ (٤٢٤٤).

وحديثُ أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ[١]، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، لَكُمْ سِيمَا[٢] لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ[٣] مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ»[٤].

وعن جابرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه عن رسولِ اللهِ ﷺ قال: «أَلَا إِنِّي فَرَطٌ[٥] لَكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَإِنَّ بُعْدَ مَا بَيْنَ طَرَفَيْهِ كَمَا بَيْنَ صَنْعَاءَ وَأَيْلَةَ، كَأَنَّ الْأَبَارِيقَ فِيهِ النُّجُومُ»[٦].
والأحاديثُ في ذلك كثيرةٌ، وللهِ الحَمْدُ.

فنعلمُ أنَّه وردتْ صفاتٌ كثيرةٌ ذُكِرَ بَعْضُهَا فيما تقدَّم مِنَ الأحاديثِ، ولتَمامِ الفائدةِ نَذْكُرُ بَعْضَ ما وَرَدَ مِنْ صِفَاتِهِ ومَزَايَاهُ، مُسْتَقَاةً مِنَ الأحاديثِ الشَّريفةِ: فَهُوَ حَوْضٌ عَظِيمٌ، ومَوْرِدٌ كريمٌ، لا يَعْلَمُ سَعَتَهُ على الحَقِيقةِ إلَّا اللهُ - تعالىٰ -، ماؤُهُ أشدُّ بياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحلىٰ مِنَ العَسَلِ، وأشدُّ بَرْدًا مِنَ الثَّلْجِ، وأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ المِسْكِ،

---

(١) إنَّ حَوْضِي أبعدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ أي: بُعْدُ ما بَيْنَ طَرَفَيْ حَوْضي أَزْيَدُ مِنْ بُعْدِ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ، وهما بَلَدانِ ساحليَّانِ في بَحْرِ القُلْزُمِ: أَحَدُهما - وهو أَيْلَةُ - في شمالِ بلادِ العَرَبِ، والآخَرُ - وهو عَدَنٌ - في جَنُوبِها، وَهُوَ آخِرَ بلادِ اليَمَنِ ممَّا يلي بَحْرَ الهِنْدِ، يُصْرَفُ بالتذكيرِ، ولا يُصْرَفُ بالتَّأنيثِ.

(٢) السِّيما - بالكَسْرِ -: العلامة.

(٣) الغُرَّة: بياضٌ في جَبْهةِ الفَرَسِ، والتَّحْجيلُ: بَيَاضٌ في يَدَيْهِ ورِجْلَيْهِ، فاستعار ﷺ للنُّورِ الَّذي يكونُ بأعضاءِ الوُضُوءِ يَوْمَ القيامةِ اسْمَ الغُرَّةِ والتَّحْجيلِ علىٰ جِهَةِ التَّشْبيهِ.

(٤) رواه مسلم (٣٦٤).

(٥) الفَرَط - بفتحتين -: هُوَ الَّذي يتقدَّم ويَسْبِقُ القَوْمَ؛ ليرتَادَ لَهُمُ المَاءَ، ويُهَيِّئَ لَهُمُ الدِّلَاءَ والحِبَالَ.

(٦) رواه مسلم (٤٢٦٢).

مَنْ يَشْرَبْ مِنْهُ شَرْبَةً لا يَظْمَأُ بَعْدَها أَبَدًا. وهو في غايةِ الاتِّساعِ، كُلَّما شُرِبَ مِنْهُ زاد واتَّسع، يَنْبُتُ مِنْ خِلَالِهِ المِسْكُ والرَّضْرَاضُ[١] مِنَ اللُّؤْلُؤِ وقُضْبَانِ الذَّهَبِ، ويُثْمِرُ أَلْوَانَ الجَوَاهِرِ، وفيه مِنَ الأباريقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّماءِ في اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ المُصْحِيَةِ، آنِيَتُهُ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ[٢].

وكُلُّ هذِهِ الصِّفاتِ سَمْعِيَّةٌ، يَنْبَغِي الإيمانُ بها كما وَرَدَتْ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ أحوالَ الآخِرَةِ مُخْتَلِفَةٌ عَنْ أَحْوَالِ الدُّنْيا، والاسْمُ هُوَ الاسْمُ، والحَقِيقَةُ غَيْرُ الحَقِيقَةِ.

وَقَدْ يُقَالُ: إذا ثَبَتَ أنَّ الحَوْضَ مَنْ شَرِبَ مِنْهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ شَرْبَةً، لَمْ يُصِبْهُ الظَّمَأُ أَبَدًا، فأيُّ حاجةٍ بَعْدَ ذلك إلىٰ الشُّرْبِ في الجَنَّةِ مِنْ نَهْرِ الكَوْثَرِ؟

وَقَدْ أجاب العلماءُ عَنْ هذا، فقالُوا: إنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لا يَشْرَبُونَ نَتِيجةً لِعَطَشٍ يُصِيبُهُمْ، وإنَّما يَشْرَبُونَ تَلَذُّذًا وشَهْوَةً، لا لِدَفْعِ الجُوعِ والعَطَشِ[٣].

---

(١) الرَّضْرَاضُ: هو ما دَقَّ مِنْ صِغَارِ الحَصَىٰ.

(٢) «فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تَيْمِيَّةَ» (٣/ ١٤٦)، و«شرح الطَّحاوية» (ص٢٥١)، و«لوامع الأنوار» للسَّفَّارينيِّ (٢/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) «تكملة شرح الصُّدور» (ص٢٦).

الحديث الثاني والأربعون

النَّظَرُ لِوَجْهِ اللهِ أَعْظَمُ نَعِيمِ الجَنَّةِ

عن صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يَقُولُ اللهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ -: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟، فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟، فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ»[1].

الشَّرْحُ:

هذا الحديثُ فِيهِ إِثْبَاتُ رُؤْيَةِ المُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ عز وجل، وفيه تَفْسِيرُ الزِّيادةِ بأنَّها: الرُّؤْيَةُ، وهذا مِنْ تَفْسِيرِ السُّنَّةِ للكتابِ العَزِيزِ، وهو تَفْسِيرُ قَوْلِهِ - تعالىٰ -: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] فالحُسْنَىٰ هِيَ: الجَنَّةُ، والزِّيادةُ: النَّظَرُ إلىٰ وَجْهِهِ جل جلاله، والَّذين أَحْسَنُوا هُمُ: المُؤْمِنُونَ، فهمُ الَّذين أحسنوا في عبادةِ اللهِ، وأحسنوا إلىٰ الخَلْقِ، فَلَهُمُ الحُسْنَىٰ وهي الجنَّةُ، ولهمْ زِيادةٌ وهي النَّظَرُ إلىٰ وَجْهِ اللهِ الكَرِيمِ، «إذا دَخَلَ أَهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، نُودُوا: إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا لَمْ تَرَوْهُ - وفي روايةٍ: يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوه -، فيقولون: ما هُوَ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، ويُزَحْزِحْنَا عَنِ النَّارِ، ويُدْخِلْنَا الجَنَّةَ؟، قال: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ؛ فينظرونَ إِلَيْهِ، فواللهِ، ما أعطاهمُ اللهُ شيئًا أحبَّ إليهِمْ مِنَ النَّظَرِ إليهِ»، وهذا فِيهِ دَلِيلٌ علىٰ أَنَّ رُؤْيَةَ اللهِ تبارك وتعالى أَعْظَمُ نَعِيمٍ يُعْطَاهُ أَهْلُ الجَنَّةِ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ يَنْسَوْنَ ما هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ عِنْدَ رُؤْيَةِ اللهِ تبارك وتعالى.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٧).

وهذا يَدُلُّ على أنَّ الله – تعالى – لا يَرَاهُ أحَدٌ في الدُّنيا، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَرَ رَبَّهُ، ولا رآهُ أحَدٌ مِنَ الرُّسُلِ والبَشَرِ؛ لأنَّ الخَلْقَ لا يَسْتَطِيعُونَ الثَّباتَ لِرُؤْيَةِ الله؛ وذلك لبَشَرِيَّتِهِمُ الضَّعيفةِ في الدُّنيا(١).

---

(١) «شرح الاقتصاد في الاعتقاد» (٦/ ٨).

عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية [الكتاب مرقم آليًا، ورقم الجزء هو رقم الدرس – ١٢ درسًا].

الحديث الثالث والأربعون

خروج الموحدين أصحاب الكبائر من النار

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَتْهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ[1]، فَبُثُّوا[2] عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ[3] تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ[4]» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: كَأَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ كَانَ بِالْبَادِيَةِ[5].

الشَّرْحُ:

قال النَّوويُّ رحمه الله: «مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ النَّارِ، وَالْمُسْتَحِقُّونَ لِلْخُلُودِ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا، وَلَا يَحْيَوْنَ حَيَاةً يَنْتَفِعُونَ بِهَا، وَيَسْتَرِيحُونَ مَعَهَا، كَمَا قَالَ اللهُ - تَعَالَى -: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، وَكَمَا قَالَ - تَعَالَى -: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ وَهَذَا جَارٍ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَقِّ: أَنَّ نَعِيمَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دَائِمٌ،

---

(١) ضَبَائِرَ أيْ: جماعةٍ في تفرقةٍ، وهو منصوبٌ على الحالِ، واحدُها ضِبارةٌ - بفتحِ الضَّادِ وكَسْرِها، والكَسْرُ أشهرُ -.

(٢) فبُثُّوا أي: فُرِّقوا ونُشِروا.

(٣) الحِبَّة - بالكَسْر -: بُزُور البُقُول وحَبُّ الرَّياحِين.

(٤) في حَميلِ السَّيْلِ أيْ: فيما يَحْمِلُهُ السَّيْلُ ويَجيءُ به مِنْ طِينٍ وغَيْرِهِ.

(٥) رواه مسلم (١٨٥).

وَأَنَّ عَذَابَ أَهْلِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ دَائِمٌ، وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ: «وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ» إِلَىٰ آخِرِهِ فَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْمُذْنِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُمِيتُهُمُ اللهُ - تَعَالَىٰ - إِمَاتَةً، بَعْدَ أَنْ يُعَذَّبُوا الْمُدَّةَ الَّتِي أَرَادَهَا اللهُ - تَعَالَىٰ -، وَهَذِهِ الْإِمَاتَةُ إِمَاتَةٌ حَقِيقِيَّةٌ، يَذْهَبُ مَعَهَا الْإِحْسَاسُ، وَيَكُونُ عَذَابُهُمْ عَلَىٰ قَدْرِ ذُنُوبِهِمْ، ثُمَّ يُمِيتُهُمْ، ثُمَّ يَكُونُونَ مَحْبُوسِينَ فِي النَّارِ مِنْ غَيْرِ إِحْسَاسٍ الْمُدَّةَ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ - تَعَالَىٰ -، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ مَوْتَىٰ، قَدْ صَارُوا فَحْمًا، فَيُحْمَلُونَ ضَبَائِرَ كَمَا تُحْمَلُ الْأَمْتِعَةُ، وَيُلْقَوْنَ عَلَىٰ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَيُصَبُّ عليهم ماءُ الحياةِ، فَيَحْيَوْنَ وَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ فِي سُرْعَةِ نَبَاتِهَا وَضَعْفِهَا، فَتَخْرُجُ لِضَعْفِهَا صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً، ثُمَّ تَشْتَدُّ قُوَّتُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، وَيَصِيرُونَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ، وَتَكْمُلُ أَحْوَالُهُمْ، فَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ لَفْظِ الْحَدِيثِ»[1].

---

(١) «شرح النَّوويِّ علىٰ مسلمٍ» (٣/ ٣٨).

الحديثُ الرَّابعُ والأرْبعُونَ

الخُلودُ الأبديُّ لأصحابِ الجنَّةِ والنَّارِ

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ[1] وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟، فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾[2].

الشَّرْحُ:

«كهيئةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ» الأَمْلَحُ: الأبيضُ الَّذي يُخالِطُهُ سوادٌ، واللهُ ﷻ قادرٌ علىٰ كُلِّ شَيْءٍ، قادرٌ علىٰ أنْ يَقْلِبَ الأَعْرَاضَ أَجْسامًا، والأجسامَ أعراضًا، ولا يُعْجِزُهُ - تباركَ وتعالىٰ - شَيْءٌ، فلا يُقالُ: كيفَ يُؤْتَىٰ بِهِ، ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ المَوْتَ عَرَضٌ؟!، لا يَقُولُ ذلكَ إلَّا ضَالٌّ مُنْحَرِفٌ شاكٌّ في قُدْرةِ اللهِ. «فينادي مُنادٍ: يا أَهْلَ الجنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ» أيْ: يتطلَّعون إلىٰ مزيدِ فَضْلٍ وإنعامٍ؛ لأنَّهم يَعْلَمُونَ أنَّهم لا يُنادَوْنَ إلَّا للزِّيادةِ في النَّعيمِ والإكرامِ.

«فيقول: هل تعرفون هذا؟، فيقولون: هذا الموتُ، وكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ» فكلُّ واحدٍ

---

(١) فَيَشْرَئِبُّون أي: يرفعون رُءُوسَهُمْ ويَمُدُّون أعناقَهُمْ.

(٢) رواه البخاريُّ (٤٧٣٠) ومسلم (٢٨٤٩).

مِنْهُمْ مات، وعاين المَوْتَ ورَآهُ، فَلِكُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ مَعَهُ مَوْقِفٌ عَصِيبٌ.

«ثُمَّ يُنَادِي: يا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ ويَنْظُرُونَ» فيظنُّون أنَّ هُنَاكَ خُرُوجًا وفِكَاكًا مِنْ هذا العذابِ، فيتطلَّعون لذلك.

«فيقولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هذا؟، فيقولون: نَعَمْ، هذا الموتُ، وكُلُّهم قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ» أي: الكَبْشُ الَّذي هُوَ المَوْتُ، يُذْبَحُ حقيقةً بَيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وأَهْلُ الجنَّةِ والنَّارِ يَرَوْنَهُ في مَشْهَدٍ مِنَ الجَمِيعِ.

«ثُمَّ يَقُولُ: يا أَهلَ الجنَّةِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ، ويا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فلا مَوْتَ» فيبقىٰ أهلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ خالدينَ فِيهَا أَبَدَ الآبِدِينَ، ويبقىٰ أَهْلُ النَّارِ في النَّارِ - نسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ السَّلامةَ والعافيةَ - خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدَ الآبِدِينَ، كما قال - تبارك وتعالىٰ -: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ٣٦ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ٣٧﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧] وهذا إنَّما يَكُونُ بَعْدَ إخراجِ عُصَاةِ المُوَحِّدِينَ مِنَ النَّارِ، حِينَ لا يَبْقَىٰ في النَّارِ إلَّا أَهْلُها الخَالِدُونَ فيها.

«ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٣٩﴾ [مَرْيَم: ٣٩]» يتقطعون أَسَفًا ونَدَمًا وحَسْرَةً، ولكنْ لا يَنْفَعُ النَّدَمُ حِينَئِذٍ، ونسألُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ السَّلامةَ والعافيةَ، وأنْ يُجِيرَنا وإيَّاكُم مِنَ النَّارِ[1].

---

(١) «التحرير والتنوير» (٢٢/ ٢٦٦) لابن عاشور.

الخاتمة

لا بُدَّ أنَّكَ قَدْ وَقَفْتَ على مَضْمُونِ رسالتي، فهي - على إيجازِها وَصِغَرِ حَجْمِها - قَدْ تضمَّنَتْ عقيدةَ الفِرْقَةِ الناجيةِ مِنَ النِّيرانِ، وَهُمْ أَهْلُ الإسلامِ والإيمانِ.

كما تضمَّنَتْ جُمَلًا عظيمةً في الاعتقادِ، تُعَدُّ مِنْ أَبْرَزِ القضايا الَّتي اختلف فيها أَهْلُ القِبْلَةِ.

فما كانَ فيها مِنْ صَوَابٍ فمن اللهِ، وأسألُهُ بمَنِّهِ وكَرَمِهِ أنْ ينفعَ بِهِ، وما كان مِنْ خَطَإٍ فَمِنْ نَفْسي وَمِنَ الشَّيطانِ، وأَسْتغفرُ اللهَ مِنْ ذلك.

والحمدُ للهِ الَّذي بنعمتِهِ تتمُّ الصَّالِحاتُ.

الفهرس



صدر حديثًا
لأبي عبد الله فيصل عبده قائد الحاشدي
• مواعظ النساء .
• الابتلاء السنة الباقية .
• عقيدة المسلم .
• حسن الجوار خلق الأبرار .
• صناعة الرجال .
• مراعاة المشاعر .
• أسرار التوفيق .
• جرح المشاعر .
• جنة الرضا .
• السكينة الخلق المفقود .
• صناعة الحفظ .
• جفاف المشاعر .
• دليلك إلى الفراسة (الطبعة الثانية منقحة ومزيدة) .
• المواعظ الذهبية (زاد للخطباء والوعاظ) .
• الفريد في خطب التوحيد .
• البصيرة في خطب السيرة .
• ذوقيات ، حتى نرتق بأخلاقنا .
• دفء المشاعر في الحياة الزوجية .
• صناعة الكتابة (قواعد وأصول) { يصدر قريبًا } .
• أعذب الكلام في صلة الأرحام { يصدر قريبًا } .
• سلامة الصدر راحة البال ونعيم الآخرة { يصدر قريبًا } .
• الجامع في خطب الكبائر { يصدر قريبًا } .
• العسل المصفى في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام { تحت الطبع } .
داركم المتميزة
دار القمة للطباعة والنشر والتوزيع
دار الإيمان للطباعة والنشر والتوزيع
١٧-١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية
تليفون وفاكس : ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت : ٥٢٢٢٠٠٢
دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة - مقابل بنك سبأ - شارع رداع
محافظة ذمار - اليمن جوال : ٧٧٥٢٠٩٩٣٥
alemanbookstore@gmail.com
dar_aleman@hotmail.com
ISBN: 978-977-372-110-7
9 789773 721107